

الباب الثاني

اليقظة الاسلامية

مقدمة :

- الفصل الثالث : الحركات الاسلامية .
- الفصل الرابع : الحركات التحررية والوحوية .

مقدمة

يطلق تعبير « اليقظة الاسلامية » على الحركات الاسلامية التى ظهرت على مسرح الاقطار العربية والاسلامية فى القرن الثامن عشر كنشوة دينية ضد ما ساد تلك الاقطار من تصرفات وسلوك يتنافى مع جوهر الدين الاسلامى الحنيف ، وان هذه الحركات الاسلامية انما قامت لكى تعيد للدين الاسلامى مكانته الاولى التى عاشها زمن رسول الاسلام الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده الخلفاء الراشدين .

وقد تمثلت تلك النشوة الدينية فى الدعوة الوهابية التى انطلقت من نجد بشبه الجزيرة العربية ، والدعوة السنوسية التى اتخذت من برقة بليبيا مقرا ومركزا تنتشر منه ، والثورة المهدية التى اتخذت من السودان مسرحا لنشاطها ، الى جانب فكرة الجامعة الاسلامية التى تزعم الدعوة اليها المفكر الاسلامى جمال الدين الافغانى واتخذ من مصر مركزا لها وساعده فى نشرها المصلح الاسلامى الشيخ محمد عبده ، بالاضافة الى الطرق الصوفية التى ظهرت فى اقطار شمال افريقيا العربية الاسلامية كالطريقة التيجانية والطريقة الشاذلية والطريقة القادرية التى انطلقت من العراق . وغيرها .

كما يطلق تعبير « اليقظة الاسلامية » ايضا على ظهور حركات تحررية ضد الهجمات الاستعمارية التى احاطت بالعالم الاسلامى منذ الحروب الصليبية ، تلك الحركات التى عاشتها اقطار اسلامية للتخلص من السيطرة الاجنبية المعادية للاسلام ، كما يطلق التعبير كذلك على دعوات الوحدة بين العالم العربى والاسلامى التى وجدت لها صدى فى قلب كل عربى وكل مسلم فظهرت مشروعات وحدوية عربية كان ابرزها ظهور جامعة الدول العربية ، كما ظهرت مؤسسات وحدوية اسلامية تمثلت فى منظمة المؤتمر الاسلامى وما تفرع عنه من أنشطة ثقافية واقتصادية واعلامية .

ويمكن القول ان هذه اليقظة الاسلامية بكل جوانبها انما حدثت كرد فعل للشوائب التى شابت العقيدة الاسلامية نتيجة تطرف بعض المسلمين

وخروجهم عن جوهر العقيدة بل وارتداد بعضهم الى تقديس الاصنام ، ومن ثم كانت اول أسس هذه اليقظة الدعوة الى عودة المسلمين للتمسك بكتاب الله وسنة رسوله وترك البدع والتصرفات المنافية للعقيدة الاسلامية . كما ان هذه « اليقظة الاسلامية » حدثت ايضا للوقوف امام الهجمات الاستعمارية ضد الاسلام والمسلمين ، كما انها جاءت للرد على التفتت الموجود في القوى الاسلامية بالدعوة الى وحدة اسلامية تعيد للمسلمين صورتهم التي كانوا عليها عند ظهور الاسلام وفي عهد الدول الاسلامية الاموية والعباسية .

واذا اردنا ان نحدد تاريخا لبدء تلك « اليقظة الاسلامية » فيمكن اعتبار القرن الرابع عشر الميلادي هو البداية ، حيث ظهرت في اوائل هذا القرن افكار العلامة والمتصوف العربي « احمد بن تيمية » (الذي عاش في الفترة من ٦٦١ – ٧٢٨ هـ الموافق ١٢٦٣ الى ١٣٢٨ م) ، والذي عايش دمار التتار في الوطن العربي الاسلامي ، فاتخذ من القرآن الكريم مصدرا لاصلاح النفوس وبعث الهمم ، وتأکید عقيدة التوحيد السامية ، وهاجم خصوم العقيدة الاسلامية وفقهاء العصر الجامدين ورجال الدين ورجال الحكم الذين استبدوا بالسلطان فافسدوا السلطة .

الفصل الثالث

الحركات الإسلامية

● الدعوات السلفية : -

أولا : اصحاب الدعوات .

ثانيا : ظروف العالم الاسلامى .

ثالثا : الفكر الدينى المتكامل للدعوات السلفية .

رابعا : المضمون الاجتماعى عند الدعوات السلفية .

خامسا: الاتجاهات السياسية فى الدعوات السلفية

سادسا: تقييم الدعوات السلفية .

● الجامعة الاسلامية : -

أولا : ظروف العالم الاسلامى .

ثانيا : الشخصيات التى ارتبطت بفكرة الجامعة الاسلامية .

ثالثا : فكرة الجامعة الاسلامية .

● الطرق الصوفية : -

الدعوات السلفية

أطلق تعبير «الدعوات السلفية» على كل من الدعوة الوهابية ، والدعوة السنوسية، والثورة المهدية، بسبب ما أتت به من مبادئ تدعو إلى عودة المسلمين إلى ما كان عليه السلف الصالح منذ زمن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وهذه الدعوات وإن اختلفت مناطق انبعاثها وتعددت أساليبها إلا أنها ذات مبادئ موحدة وأهداف متشابهة وكلها استفادت من جهود العلامة « أحمد بن تيمية » في مواجهة الخارجين على جوهر الدين الإسلامي « كالباطنية » التي اتخذت ما عرف بمبدأ الاشراف الإلهي ومعناه أن المعرفة تشرق على أئمتهم فتسمو بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، أي أن الله يفيض عليهم نور المعرفة فتتكشف لهم الحقائق فيعرفون بواطن الأمور وظواهرها، وكفرقة « النصيرية » التي أعانت التتار على محو الإسلام (١) . كما رأى ابن تيمية أن الجهالة من عامة الناس ينحتون في الصخور أقداما وأكفا يدعون أنها للنبي محمد عليه الصلاة والسلام فيقدسونها ويتبركون بها أو يصنعون أصناما يسجدون لها .

ومن ثم وجه « ابن تيمية » دعوته بالرجوع إلى القرآن والسنة واتباع السلف الصالح في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين لأنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة ، ومحاربة البدع والمنكرات ولا سيما ما كان منها وسيلة للشرك بالله وترك الفلو في تقديس الرسول صلى الله عليه وسلم والاكتفاء بالاقتداء بهديه (٢) . وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ولعن من اتخذ من القبور مساجد ، فقد ورد نهيه صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد ولعن من يفعل ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم « لعن الله زائرات القبور » ، وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ، لهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم لا تجعل قبري وثنا بعدى (٣) .

-
- (١) د. محمد بدیع وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ص ٩ .
(٢) حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٩٠ .
(٣) ابن تيمية : كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد ص ٤٣٧ .

ويجب ان يكون واضحا اذن من البداية ان دعوة التوحيد التي نادى بها العلامة « احمد بن تيمية » كانت عاملا مشتركا لكل الحركات الدينية الاخرى ، كما كانت هناك عوامل اخرى اشتركت الدعوات السلفية في التأثير بها مما يجعلنا نعتقد بوحدة هذه الدعوات في الهدف وفي المصير (٤) ، خاصة ان هذه الدعوات جاءت في الوقت الذي كان الوطن العربي يخضع للسيادة العثمانية التي فرضت على العرب عزلة وجمودا فكريا جعلت الاسلام في الاقطار العربية وخاصة بين الاتراك مشرب بالمساوىء التي لا تمت الى الدين الصحيح بنسب (٥) .

ويمكن ان نحدد في البدء عوامل التشابه بين الدعوات السلفية الثلاث على النحو التالي :

اولا : اصحاب الدعوات :

تنسب الدعوة الوهابية الى العلامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما تنسب الدعوة السنوسية الى الشيخ محمد بن علي السنوسي ، والدعوة المهدية الى الشيخ محمد احمد بن عبد الله الملقب بالمهدي المنتظر، فوجه الشبه الاول جاء في التسمية باسم «محمد» تيمنا باسم رسول الاسلام ، كما يتشابه اصحاب الدعوات السلفية الثلاث في المكونات الشخصية ، « فمحمد بن عبد الوهاب » ينحدر من اصول عربية تنتهي به الى « مضر » وهى بطن من بطون تميم اكبر القبائل العربية وأعزها (٦) .

كما ان محمد بن عبد الوهاب شب في بيت علم ودين فقد شغل والده منصب القضاء في « العيينة » وغيرها من مدن نجد وكان متفقا في مذهب الامام احمد بن حنبل ، الذي يقوم على تدريسه مع الحديث والتفسير لطلاب العلم الذين كانوا يمشون الوقت في جدل فقهي أو نقاش ديني ، وكان الطفل محمد بعد ان شب واصبح صبيا يحلو له ان يراقب مجلس ابيه عن كثب فينصت لاحاديث القوم ومجادلاتهم (٧) ، حتى اذا بلغ مبلغ الرجال

(٤) د. رافت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ص ١٨٧ .

(٥) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥٤٩ .

(٦) عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ص ٤٥ .

(٧) د. عبد الحميد البطريق : الوهابية دين ودولة ، مجلة كلية

النبات ص ٤٢ .

زوجه ابوه وجعله يَوْم المصلين واخذ يسترشد بأرائه فيما يعترضه من فتاوى ومسائل فقهية حتى كان والده يقول عنه لقد استفدت من ولدى محمد فوائد شتى في الاحكام (٨) .

كما أسهمت عدة أمور في تحديد شخصية محمد بن عبد الوهاب ، فالى جانب نشأته الدينية وذكائه العقلى كانت معيشته في بيئة بدائية وهى بيئة ليست معقدة ولكنها واضحة مكشوفة والناس فيها على الفطرة سهل التأثير فيهم سلبا ام ايجابا (٩) ، ورحلاته داخل نجد وخارجها الى الحجاز والعراق حيث درس على ايدى علماء افذاذ وشاهد ما يرتكبه البعض من تصرفات ينكرها الاسلام سواء حول قبر الرسول عليه الصلاة والسلام او حول مزارات الشيعة في كربلاء والنجف الاشرف فدخل في مجادلات منها كما يذكر « ان اناسا من مشركى البصرة يأتون الى شبكات يلقونها على فأقول وهم قعود لدى ، لا تصلح العبادة كلها الا لله فيبته كل منهم فلا ينطق فاه (١٠) .

وأما « محمد بن على السنوسي » الذى ينتهى نسبه الى ادريس الاكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن ابي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١) ، والذى يختصر اسمه السنوسيون ليصبح : محمد بن على السنوسي الخطابى الحسنى الادريسي (١٢) ، عربى الاصل قرشي النسب ينتمى الى البيت النبوى الشريف ولد ببلدة مستغانم بالجزائر في ١٢ ربيع الاول ١٢٠٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ م في بيت علم ودين فوالده وجده وأعمامه وابناء اعمامه وكثير من نساء هذا البيت الكريم مثل جدة محمد بن على السنوسي لاييه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة كانوا جميعا علماء (١٣) . . وهو في هذا يشبه محمد بن عبد الوهاب .

-
- (٨) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٤٥ .
(٩) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٠١ .
(١٠) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢٨ .
(١١) مصطفى بعيو : دراسات في التاريخ اللوبى ص ٢٠ .
(١٢) محمد بن على السنوسي : الدرر السنية في اخبار السلالة الادريسية .
(١٣) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ١١ .

كما أن شخصية محمد بن علي السنوسي تكونت في هذا البيت الديني وتأثرت بما تعلمه في معاهد العلم بمسقط رأسه وفي جامع القرويين بمدينة « فاس » المغربية . وفي جامع الزيتونة بتونس وفي الجامع الأزهر بمصر وفي الحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة . وهذا يعني أن رحلات محمد بن علي السنوسي من الجزائر إلى المغرب وتونس وطرابلس الغرب ومصر والحجاز قد أكسبته معرفة واسعة بأحوال المسلمين . فإلى جانب دراسته للطرق الصوفية القادرية والشافعية والناصية والحبيبية (١٤) ، المنتشرة في شمال إفريقيا اصطدم بالحكم التركي في مصر الذي كان على رأسه محمد علي وهاجم تركيا لأنها تحتقر الجنس العربي وتولي على العرب حكاما من الأتراك . ونعى على علماء الأزهر تأييدهم لولاية محمد علي ، ولم يكن والى مصر ليرحب بمحمد بن علي السنوسي . ولعل موقف علماء الأزهر منه - حين طلبوا من طلاب العلم الابتعاد عن حلقاته التي عقدها بالجامع الأزهر - موقف موعز به (١٥) . ولما انتقل إلى الحجاز وجد عنتا من أشراف مكة ومن العثمانيين هناك ، وعندما عاد من الحجاز إلى الجزائر ساء وقوع بلاده الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ م فتأثر كثيرا واختار برقة منطلقا لدعوته الشاملة . وهو في هذا يشبه محمد بن عبد الوهاب .

وينسب « محمد أحمد بن عبد الله » الذي لقب نفسه بالمهدي المنتظر ، والذي ولد بجزيرة « لب » جنوب مدينة دنقلة بشمال السودان في ١٢ أغسطس ١٨٤٤ م ، إلى القبائل العربية الذين اختلطوا بالدماء النوبية . ويذهب البعض إلى أن أصله مصري وأن موطن أسلافه في مديرية أسوان (١٦) . وعلى أية حال فإن انتماءه إلى قبائل الكنوز النوبيين وانحداره من الكنوز كان له أهمية خاصة في حياته . فالكنوز ينتمون إلى آل البيت ، ومن هنا كان انتساب محمد أحمد إلى البيت النبوي ، وكان لنسبه هذا أثر كبير في نجاح دعوته وتأليف القلوب من حوله (١٧) . . إذن فهو عربي قرشي مثل محمد بن علي السنوسي .

(١٤) د . نقولا زيادة : ليبيا ... ص ٦٤ .

(١٥) مصطفى يعقوب : المرجع السابق ص ٢٤ .

(١٦) عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال

ص ١١٥ .

(١٧) د . حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص ٤٠٣ .

وقد تكونت شخصيته منذ الصغر حيث ولد في بيت يعمل راعيه - عبد الله والد محمد أحمد - بصناعة السفن النيلية الا أنه اتجه نحو العلم فدخل خلوة (١٨) القرية حيث تعلم وحفظ القرآن الكريم ، واخذ يتنقل في أنحاء السودان لحضور حلقات العلم التي يقيمها علماء الدين في الخرطوم وبربر والجزيرة ، ويتلمذ على أصحاب الطرق الصوفية المنتشرة في السودان ، فانضم الى السيد « محمد الشريف نور الدايم » شيخ الطريقة « السمانية » (١٩) الذي سمح له بتكوين مريدن له رغم صغر سنه ، وكان ذلك مما ساعده على التمرن في الوعظ والارشاد (٢٠). ومن ثم اتجه في النيل الابيض حتى جزيرة « آبا » (عام ١٨٧١ م) ذات الغابات المتشابكة وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وأنفار قلائل من « الشلك » وهم سكانها الاصليون (٢١) ، وذلك من خلال رغبته في العزلة والبعد عن جو الخرطوم للاختلاء بعيدا للتأمل والتعبد .

وقد تعددت ارتباطات محمد أحمد برجال الدين السودانيين ، فالى جانب تعلمه على يد الشيخ « محمد الشريف نور الدايم » الذي اخذ محمد أحمد عنه مزيدا من الدروس في العلوم الشرعية والتصوف ، تعلم محمد أحمد على يد الشيخ « محمد الخير » ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف ، كما تعلم على يد الشيخ « القرشي ود الزين » بأرض الجزيرة اصول اوراد واذكار الطريقة السمانية ، ولم تطل اقامه محمد أحمد كثيرا مع استاذة الشيخ القرشي بسبب وفاة الاستاذ فعاد الى جزيرة آبا لى يستكمل بناء أسس دعوته ، ولا شك أن هذا الترحال ودخوله في احدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها كان أحسن وسيلة للدعاية له ولفكرته وللعمل على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره وتنفذ ارشاداته (٢٢) .

(١٨) الخلوة تعنى المدرسة القرآنية أو الزاوية التى يحفظ بها طلاب العلم القرآن الكريم ويتعلمون بعض العلوم العربية .

(١٩) احدى الطرق الصوفية التى ظهرت في المدينة المنورة ونقلها الى

السودان جد الشيخ محمد الشريف .

(٢٠) د . جلال يحيى : الثورة المهدية . ص ٢١ .

(٢١) د . مكى شببكة : السودان عبر القرون ص ٢٥٣ .

(٢٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢ .

وقد ساعده ترحاله كذلك على معرفة احوال السودانيين وما يعيشون فيه من ضلال وبدع الى جانب تفشي الجهل والفقر بينهم ، والفساد الذى عم ادارة الحكم في السودان مما جعله يرفض تناول الطعام مع شيخه الذى يتناول مرتبا حكوميا من الذرة والمال . لانه يرى ان مثل هذا الطعام قد لا يخلو من الدخل الحرام ، ومن ثم عاش عيشة الزهد يذهب في بهيم الليل للصيد الحلال على شاطئ النهر لاصطياد السمك ، ويلقى في سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل ان يقع السمك في سنارته (٢٣)، كما انه اشترى بجمع الخشب وبيعه وذلك الى جانب دراسته الدينية (٢٤) . كل ذلك جعل من محمد احمد شخصية زاهدة ساعدته على التعمق في امور الدين والدنيا ويفكر في الكيفية التى تصلح بها احوال المسلمين في الاتجاهين الدينى والدنيوى (٢٥) . وهذا يتشابه مع اصحاب الدعوتين الوهابية والسنوسية .

ثانيا : ظروف العالم الاسلامى :

لا يقتصر تشابه الحركات السلفية على شخصيات اصحابها ، بل يمتد هذا التشابه الى نواحى اخرى منها ظروف العالم الاسلامى بصفة عامة ومواقع انبعاث تلك الدعوات بصفة خاصة ، تلك الظروف المتشابهة في البيئة الطبيعية وفى الامور الدينية والاحوال الاجتماعية والاوزاع السياسية : التى عاشتها الاقطار العربية الاسلامية تحت الحكم العثمانى لمدة بلغت اربعة قرون .

(ا) الظروف الجغرافية :

فظروف البيئة الطبيعية متشابهة في كل من نجد مركز انبعاث الدعوة الوهابية وفي برقة مركز ظهور الدعوة السنوسية وفي السودان مقر انطلاق الدعوة المهدية ، وظروف البيئة الطبيعية تشمل السطح والموقع وغيرها من العوامل الجغرافية كما تشمل السكان في هذه البيئة .. وتتوسط نجد شبه الجزيرة العربية وهى هضبة يقلب عليها الطابع

(٢٣) د . مكى شيكة : المرجع السابق ص ٢٥١ .

(٢٤) د . ابراهيم العدوى : نقطة السودان ص ٤٩ .

(٢٥) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٠٦ .

الصحراوي الجاف وان ضمت كثيرا من الوديان والواحات أهمها « وادي حنيقة » و « وادي الرمة » وهذه المناطق الخصبة تحيط بها « الدهناء » شرقا وجنوبا ، « والنفود » والمنحدرات من الشمال ، ومنحدرات من الغرب (٢٦) .

ومع اتساع هضبة نجد فان القسم المأهول منها لا يتعدى سلسلة ضيقة من الواحات ممتدة على شكل هلال تحف بها الرمال من كل جانب وتفصل ما بينها أحيانا ، فهي محدودة من الجنوب بصحراء « الربع الخالي » ومن الشرق « بالدهناء » ومن الشمال « بالنفود الكبير » ومن الغرب بأنفاد « السر » و « البطرا » و « قنيفذة » (٢٧) . والمنطقة بصفة عامة صحراوية وحيث توجد الابار بقدر كاف من الماء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين ، وهذه على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب . ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية (٢٨) .

واذا كانت نجد تعيش طبيعيا بهذه الصورة الصحراوية بكل ما تشتمل عليه من رمال وهضاب وصخور ووديان وواحات ، فالحرارة في نجد تشتد في النهار بينما تزداد البرودة ليلا ، والجو جاف ، والامطار قليلة بصفة عامة واكثر مناطق نجد حظا من الامطار مناطق جبال «شمر» « والنفود الشمالي » ، بينما الصحراء الجنوبية تكاد لا تسقط بها الامطار (٢٩) . ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الظروف على حياة السكان .

وكانت برقة مقر انبعاث الدعوة السنوسية صورة أخرى للصحراء بظروفها الطبيعية ، فبرقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة ، طرابلس ، فزان) بل انها اكبر هذه الاقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ الف كم ٢) وان لم تكن اكثرها سكانا ، ويمتد هذا الاقليم من « عقبة السلوم » شرقا الى حدود طرابلس غربا ، وكان يعرف عند الرومان باسم اقليم «سيرينة»

-
- (٢٦) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٣ .
(٢٧) د . عزة النص : أحوال السكان في العالم العربي ص ٦٥ .
(٢٨) الليدي آن بلنت : رحلة الى بلاد نجد ص ٢٠٧ .
(٢٩) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٩٢ .

التي سماها العرب « قرين » أو « قرناه » . ثم أصبح يعرف منذ الفتح
العربي باسم اقليم برقة (٣٠) .

وسطح برقة متنوع حيث يوجد سهل ساحلى يضيق احيانا ويتسع
احيانا اخرى . والى جانب هذا السهل الساحلى يوجد الجبل الاخضر
الذى يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالى الف متر وتكسوه الخضرة
الدائمة . ويرتفع من الساحل ارتفاعا مباشرا ولكنه ينحدر تدريجيا
نحو الصحراء في الجنوب ، وبه من الاراضى الصالحة للزراعة المساحات
الكبيرة التى تروىها مياه الامطار الغزيرة خاصة في فصل الشتاء (٣١) .

والى الجنوب من الجبل الاخضر توجد الصحراء الواسعة التى تكون
معظم مساحة الاقليم ، وهذه الصحراء مستوية وان وجد بها بعض
الكتبان والهضاب فهى مستوية أيضا . وفي صحراء برقة توجد اودية
عميقة بعضها يمتلىء بالماء فترة ما وبعضها يكون جافا طول السنة (٣٢) . كما
توجد بعض الابار والينابيع المنثائرة وسط الصحراء تحيط بها واحات
فقيرة مثل « الجفوب » و « الكفرة » و « جالو » و « أوجلة » (٣٣) .

والمناخ في برقة يتنوع بتنوع السطح والموقع فالسهل الساحلى
والجبل الاخضر كلاهما يتمتعان بمناخ معتدل لوقوع الاول على البحر
المتوسط ولارتفاع الثانى عن سطح البحر ، كما تسقط الامطار بغزارة على
السهل الساحلى والجبل الاخضر في معظم شهور السنة فيما عدا فصل
الصيف . اما المناخ في الصحراء الواسعة الواقعة الى الجنوب من الجبل الاخضر
فيتسم بأنه مناخ صحراوى اى شديد الحرارة نهارا شديد البرودة ليلا ، ونادرا
ما تسقط الامطار هناك . ولذلك يتبعثر السكان في الصحراء حيث توجد
الواحات وعيون الماء بينما يتركزون في الجبل الاخضر والسهل الساحلى .

وبهذا الشكل يمكن ملاحظة التشابه بين ظروف نجد الطبيعية وظروف
برقة الطبيعية وهو تشابه لا يصل الى حد التطابق ، وان وجد خلاف في

(٣٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٨٢ .

(٣١) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٣٢) د . فيليب رفته : الجغرافيا السياسية لافريقيا ص ٣٣٨ .

(٣٣) د . عزة النص : المرجع السابق ص ٧٦ .

هذه الظروف فانما يرجع الى اختلاف موقع برقة وخاصة الجزء الشمالى منها المثل على البحر المتوسط - عن موقع نجد الجغرافى ، ومن ثم يختلف المناخ بين نجد وبين الجزء الشمالى من برقة ، ويتشابه في الصحراء البرقاوية مع الصحراء النجدية .

وأما السودان فان ظروفه الطبيعية لا تختلف كثيرا عن ظروف نجد الطبيعية ، فاذا كانت دنقلة التى ولد بها محمد أحمد وعاش فيها سنوات عمره الاولى تقع في اقليم صحراوى نادر المطر بشمال السودان وتسكنه الجماعات الحامية كالنوبيين الذين اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم ، فانه الى الجنوب من دنقلة نجد السودان الاوسط حيث المناخ الصحراوى يسود ايضا مع سقوط امطار في شهرى يوليو واغسطس ويسكنه العرب الذين يحتلون دارفور وكردفان والخرطوم والنيل الازرق والاجزاء الجنوبية من « كسلا » (٣٤) .

وقد اتخذ محمد أحمد من جزيرة « آبا » في النيل الابيض مقرا لدعوته وهى جزيرة ذات غابات كثيفة ، ثم انتقل منها الى جبل قدير بكردفان الجنوبية ثم الى كردفان الاوسط « فدارفور » وكلها تقع في غرب السودان ، وهى مناطق صحراوية ، حيث تمتد هضبة كردفان التى ترتفع بحوالى ٥٠٠ متر عن مستوى سطح البحر وتعلوها عدة جبال منفردة تتجمع في الجنوب باسم جبال النوبا ، وترتفع هضبة كردفان تدريجيا الى الغرب حتى تصل الى هضبة دارفور التى تسيطر عليها كتلة جبل « مرة » البركانية ، ودرجة الحرارة عالية طول السنة وبلا جدال فان الصحراء أكثر الاجزاء حرارة ، وامطار غرب السودان موسمية وتسقط كلها في فصل الصيف « ٣٥ » .

وهكذا تتشابه ظروف غرب السودان مع ظروف نجد وظروف صحراء برقة من حيث السطح وقلة الامطار وموارد المياه ، وبالتالي يتبعثر السكان في غرب السودان كما هو الحال في نجد وصحراء برقة .

(ب) الظروف الاجتماعية :

تتشابه الاحوال الاجتماعية للعرب في كل مكان انطلاقا من امتداد الارض العربية الاسلامية امتدادا مستمرا ، وتشابه الارض التى يعيشون

(٣٤) د . فيليب رفلة : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(٣٥) د . محمد رياض : افريقيا .. ص ٣٩٦ - ٤٠٠ .

عليها - كما رأينا - ومن هنا فإننا نلاحظ تشابهها في حياة سكان نجد مع سكان السودان بصفة خاصة ، ومع سكان بقية العالم العربي الاسلامى بصفة عامة ، فاذا اضفنا الى ذلك وحدة الجنس الذى ينتمى اليه العرب والمسلمون ووحدة الثقافة القائمة على اللغة العربية والدين الاسلامى ادرکنا هذا التشابه الذى اشرنا اليه في احوال العرب والمسلمين خاصة في مواطن انبعاث الدعوات السلفية .

كانت احوال سكان نجد بل وشبه الجزيرة العربية عامة متأثرة بطبيعة الارض التى يعيشون عليها وهى ارض صحراوية تقوم في انحاء عدة منها مدن صغيرة حول آبار المياه وبالقرب من الواحات ، ومن ثم وجدنا السكان ينقسمون الى بدو وحضر ، فالبدو هم القبائل الرحل الذين يتنقلون من جهة الى اخرى في طلب المراعى والمياه لاغنامهم وابلهم ، وهم لا يميلون الى الاستقرار ، وكثيرا ما يلجأون الى القتال من اجل الحصول على اماكن غنية بالعشب لرعى ماشيتهم (٣٦) .

وكانت مسألة توفر المراعى والمياه للابل والاغنام لا تحدث الا بالرحلة والضرب في المناطق النائية . ولذلك صار كل تنظيم سياسي قائم على الاستقرار في السكن امرا متعذرا على البدوى . والصلة الدموية وحدها هى التى تعين الفلك الذى تضطرب فيه حياة البدو . فهى تربط الاسر بالعشائر والعشائر بالقبائل (٣٧) .

والقسم الثانى من سكان نجد هم الحضر سكان المدن والواحات والقرى وهم اكثر استقرارا من البدو ، وان كانوا في الاصل من البدو وتوطنوا في مساكنهم من قديم (٣٨) . ويشتغل الحضر في معظمهم بالتجارة ، الا ان التجارة في الفترة السابقة لقيام الدولة السعودية وحركة محمد بن عبد الوهاب فقدت اهميتها كمورد للرزق لبعض سكان نجد نظرا لفقدان الامن وعدم استقرار النظام وانتشار الفوضى (٣٩) .

(٣٦) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٣٧) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ١٧ .

(٣٨) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٣٩) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الاولى ص ٩ .

وسكان نجد من البدو والحضر ينتظمون في قبائل تحكمها الاعراف والتقاليد المتوارثة ، فاذا كانت القبائل البدوية سمعتها عدم الاستقرار والتقاتل والاغارة على من جاورهم أو الهجرة الى أرض جديدة فان الحضر انتظموا في مجموعة من الامارات أو المشيخات التى تتفق مع القبائل البدوية في الطابع الصحراوية حيث عاد السكان الى مفاهيم الحياة البدوية الجاهلية التى كانوا عليها قبل الاسلام وعادت العصبية القبلية تمزق المجتمع وتفتته ، وعاد الغزو والسلب والنهب ليكون مصدر العيش في الصحراء (٤٠) .

والتنظيم القبلى - كما هو معلوم - يعطى لشيخ القبيلة السلطة الكاملة على كل أفراد قبيلته ، وهو في العادة أكثر أفراد قبيلته ثروة وأكبرهم مركزا وسنا في الغالب ، ولذلك يعد المسئول عن كل ما يلحق بقبيلته من اغارات القبائل الاخرى الى جانب مسؤوليته عن تنظيم الامور المتعلقة بأفراد قبيلته مهما سكنوا في مناطق متفرقة أو في قرى ووحدات متباعدة ، ومهما اختلفوا من حيث الثراء أو في درجة التحضر ، فالكل أمام أعراف وتقاليد القبيلة سواء (٤١) .

وقد تمسك أهل نجد بعادات العرب الاصلية مثل المروءة والشجاعة، ومنح الحماية للمسافر طوعا وعن طيب نفس ، وقد يضم أحداً أفراد القبيلة رجلا غريبا الى عشيرته ضما لا انفصام له (٤٢) هذا الى جانب علاج الخلافات اليومية عن طريق المجالس اليومية . والطاعة لشيخ القبيلة ، والاستماع الى من هم أكبر سنا واحترام مجلسهم ، والتضحية بالروح أثناء الحرب وبالأموال أثناء السلم ، وهم على العموم كما ذكر « أحمد بن سعيد البغدادى في كتابه « نديم الاديب » في حديثه عن أهل نجد في تلك الفترة بقوله : « ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننهم فهي عندهم » (٤٣) .

وأما قبائل وعشائر نجد فكانوا موزعين على النحو التالى : أهـل «حـايل» ينتمى أكثرهم الى «شمر» وأهل «القصيم» يرجعون في الغالب الى «بنى

-
- (٤٠) أحمد عسـه : معجزة فوق الرمال ص ١٢ .
 - (٤١) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ١٩٥ .
 - (٤٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ١٧ .
 - (٤٣) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٤٢ .

خالد » و « بنى تميم » ، وأهل الجنوب ينتمون في انسابهم الى « عنزة » ، وأهل الوسط الى « الدواسر » و « بنى تميم » ، وأهل الجنوب الغربي ينتمون الى « الدواسر » و « قحطان » (٤٤) . « وينتمى محمد بن عبد الوهاب » لقبيلة « بنى تميم » ، بينما ينتسب آل سعود الى قبيلة « عنزة » .

وأما قبائل برقة فقد عاشت نفس التنظيم القبلى العربى من حيث انقسامها الى عشائر وبطون وأفخاذ ، وللقبيلة ارض تملكها وتنتقل في أرجائها ، وأفراد كل قبيلة متضامنون في اداء ما عليهم من واجبات وفي الحصول على ما لهم من حقوق ، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها . ومنذ أيام الفتح العربى الاسلامى حتى العصر الحديث كان الحكم في برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار في تقسيم البلاد الى وحدات ادارية . بحيث تكون القبيلة أساسا لتطبيق النظام ومساعدة الحكام (٤٥) .

ولسنا بحاجة الى الحديث بتفصيل عن معيشة القبائل العربية في برقة ، حيث ان القبائل البدوية في الصحراء العربية سواء في المشرق – كما راينا في نجد – او في المغرب العربى . يعيشون حياة غير مستقرة فيما عدا سكان الواحات والمدن الذين يتمتعون بالاستقرار . وقد اتضحت صورة التنظيم القبلى في برقة منذ الفتح العربى الاسلامى ، ثم عندما زحفت قبائل بنى هلال وبنى سليم من مصر الى المغرب منذ القرن الخامس الهجرى – الحادى عشر الميلادى – فوجدنا هذه القبائل تنقسم الى قسمين رئيسيين : القبائل « السعدية » ، وقبائل « المرابطين » . ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بنى سليم ، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتح الاسلامى والتى اختلطت بالبربر وعربتهم ، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف في النسب الى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم (٤٦) .

-
- (٤٤) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٤٧ .
(٤٥) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٣٣ .
(٤٦) د . نقولا زيادة : المرجع السابق ص ١٢ .

ورغم أن اقليم برقة تميز بانقسام سكانه الى قبائل متنافرة تأثر افرادها بالبيئة الصحراوية فقد اتصفوا بالقوة والخشونة والمحافظة على العادات والتقاليد العربية ، هذا الى جانب أن الاقليم كان عدد سكانه قليلا بالنسبة لمساحته الشاسعة ، كما كان هذا المجتمع البرقاوى اكثر تجانسا في تكوينه الجنسي وختلوا من الاقليات التى تفت دائما في عضد الحركات الاصلاحية (٤٧) .

وأما احوال السودانيين الاجتماعية فانها لا تختلف كثيرا عن احوال النجديين والبرقاويين ، اذ تسكن السودان الشمالى والوسط قبائل عربية بصفاتها الاجتماعية المعروفة ، حيث أن القبائل السودانية وفدت الى السودان من طريقين ، الطريق الأول هو الباب الشمالى الذى يقضى الى مجرى النيل (٤٨) ، والطريق الثانى هو الباب الشرقى المنحدر من ساحل البحر الاحمر ، عبرته الهجرات من شبه جزيرة العرب في طريقها صوب الغرب الى السودان الاوسط (٤٩) .

وقد انقسمت هذه القبائل العربية الوافدة الى ثلاث مجموعات : المجموعة الاولى هى مجموعة « الجعليين » وهى أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا في السودان وقد انتشرت في المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب ام درمان ، والمجموعة الثانية هى مجموعة « جهينة » ، وهم عرب وفدوا الى مصر اولا حتى اذا كان القرن الرابع عشر الميلادى اتجهوا جنوبا نحو السودان حيث استقروا في شرقه وعلى حدود الحبشة وفي الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، والمجموعة الثالثة تعرف باسم « الكواهلة » ومنازلهم في العطبرة والنيل الازرق وحول النيل الابيض وكردفان في الغرب (٥٠) .

-
- (٤٧) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٦ .
(٤٨) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٠٤ .
(٤٩) د . محمد عوض : السودان الشمالى ص ١٥٩ .
(٥٠) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٠٠ .

ورغم انقسام اهل السودان الى قبائل وعشائر الا ان نهر النيل قد ساعد على استقرار كثير من هذه القبائل وحول حياتها من الرعى والتنقل الى الزراعة والاستقرار ، ومع ذلك فقد بقيت خارج المدن والقرى التى سكنها المستقرون حياة لغير المستقرين الذين اتخذوا من شرق السودان وغربه مقرا لهم يمارسون فيه حياتهم القبلية البدوية بكل ابعادها من رعى وتقاتل وخضوع لزعامة القبيلة .

(ج) الامور الدينية :

كانت احوال المسلمين الدينية متشابهة في تلك الازمان التى سبقت ظهور الدعوات السلفية . حيث غلب عليها اتباع البدع والخرافات بل والاستغاثة بغير الله . مما استدعى وجود مصلحين . فقد سيطر على اهل نجد سحبا من الخرافات وكثر عدد الادعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان الى مكان يحملون في اعناقهم التماائم والتعاويد والسبحات ، فلو عاد صاحب الرسالة - محمد صلى الله عليه وسلم - الى الارض في ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الاسلام لغضب واطلق اللعنة على من استحقتها من المسلمين كما يلعن المرتدون وعبداء الاوثان (٥١) .

وعلى هذا كان التدهور في المجتمع الاسلامى يسير بسرعة حتى اصبحت القيم التى اكسبها الاسلام لمجتمع شبه الجزيرة العربية قد اضمحلت واندثرت او كادت ، واحتلت الضلالات والبدع والخرافات والاساطير في نفوس العامة وغير العامة محل القيم الصحيحة للاسلام ومبادئه حتى اصبحت بعض الاشجار والكهوف والمغاور والقباب والقبور والاضرحة موضع قداسة وشفاعة اقرب الى العبادة ، وحتى اصبحت تعاليم الاسلام التى تضبط المجتمع وتحكم روابطه نسيا منسيا ، وكان الاسلام لم يظهر في شبه الجزيرة العربية ولم يترك اثرا حضاريا لا على رمالها ولا في عقول ابنائها ونفوسهم (٥٢) .

ولم تكن نجد تنفرد بمثل هذه الخرافات والبدع ، فقد شاركتها فيها بقية اجزاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الاقطار الاسلامية التى تعرضت لمثل ظروف شبه الجزيرة العربية واعنى الظلم والفقر والجهل ،

(٥١) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ج١ ص ٢٥٩ .

(٥٢) احمد عسه : المرجع ص ١٢ .

وهى ظروف ساعدت على كثرة الدجالين وأصحاب البدع ممن يجدون لبضاعتهم سوقاً رائجة في دنيا العوام وأشباه العوام (٥٣) .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن أحوال أهل برقة الدينية ، ذلك أنه بحكم مرور السنين وإهمال المصلحين الدينيين لوظيفتهم قد جعل البرقاويين يحدون عن أصول الإسلام الصحيح ، وغير متفهمين للعقيدة وإنما مقلدين ، ومن ثم أصبحوا مآدرين في غيابات الضلال معرضين لخطر أصحاب النفوذ من شيوخ البدو في الجبل الأخضر شبيها بالكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام ، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا في أذهان البدو أن زيارتهم لها تقوم مقام حج بيت الله الحرام (٥٤) . إلى غير ذلك من أعمال تنافى الدين كواد البنات وعدم صوم رمضان بابتداع بدعة تقوم على الذهاب قبل حلول شهر رمضان بأيام إلى وادي « زازا » المعروف بقوة رجوع الصدى وسؤاله يصومون رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة « لا » فيصبحون في حل من الصوم ويفطرون (٥٥) .

وأما أمور السودانيين الدينية فلم تختلف عن أمور النجديين والبرقاويين ، ذلك أن الإسلام عندما دخل إلى السودان على أيدي القبائل العربية لم ينتشر بين أهل البلاد بالتبشير أو الدعوة إلى الدين ، وإنما انتشر بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمي ، بالأصهار إلى الشعوب المحلية ، ثم امتصاص هذه الشعوب في الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل في الحياة القبلية الجديدة (٥٦) . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعي اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازدياد التيار الإسلامي عمقا بمضي الزمن (٥٧) .

وقد ساعد على ذلك أن العرب في كل بلد نزلوا فيها بعد الفتح الإسلامي لم يكونوا طبقة حاكمة متعالية ومنعزلة عن السكان الأصليين ،

-
- (٥٢) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٣١ - ٣٢ .
(٥٤) أحمد حسنين : في صحراء ليبيا ص ٤٨ .
(٥٥) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٥٦-٢٥٧ .
(٥٦) عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان ج١ ص ٢٥ .
(٥٧) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٣٩ .

ولم يطالبوا بحكم ذاتي او مملكة خاصة ولكن كانت لهم احياؤهم الخاصة في المدن الكبيرة ولهم قراهم الخاصة ، والدلائل واضحة على انهم في بعض المناطق خضعوا لحكام البلاد (٥٨) .

ونتيجة للانقسامات بين القبائل السودانية من ناحية وشيوع مظاهر الفقر والجهل ظهرت زعامات دينية صوفية متنافسة لا تهتم بأصول الاسلام وقواعده الاساسية . مما ساعد على سواد العاطفة والخرافات بين السودانيين . وجعل السودانيين ينسبون الى رجال الدين المعجزات بل وقدسوهم اكثر من تقديس الانبياء في الوقت الذي ضعف فيه مستواهم العلمى فلم يكن باستطاعتهم التمييز بين الخرافات والعقيدة الصحيحة (٥٩) .

(د) الاوضاع السياسية :

عاش العالم العربى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى وعلى مدى اربعة قرون تحت الحكم العثمانى المباشر وغير المباشر . ومن هنا تأثرت الاقطار العربية بسلبيات هذا الحكم التى كان من اهمها فرض العزلة وحياة الجمود على المسلمين الذين قتلت فيهم روح الابتكار والتفكير ، ومن هنا تشابهت الاوضاع السياسية وان لم تنطبق في مواطن انطلاق الدعوات السلفية الاصلاحية .

وتمثلت الاوضاع السياسية في نجد قبل ظهور الدعوة الوهابية في وجود عدة امارات صغيرة تتخذ كل امارة منها مقرا لها في بلدة من بلاد نجد . ولها أميرها الذى هو في نفس الوقت زعيما لعشيرة او رئيسا لقبيلة او راعيا لاسرة له الكلمة المسووعة على اهل امارته (٦٠) .

ومن الثابت أن اقليم نجد لم يخضع للحكم العثمانى كما خضعت اطرافه في الحجاز والاحساء ، ومن ثم لم يشهد الاقليم ولاة عثمانيين

(٥٨) د . مكى شببكة : مملكة الفونج ص ١٩ .

Hilleison : Anglo-Egyptian Sudan, P. 101.

(٥٩)

(٦٠) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ١٩٦ .

يأتون اليه ولا حامية تركية تجوب خلال دياره (٦١) ، ولقد تركت الدولة العثمانية هذا الاقليم لاهله يحكمونه بالطريقة القبلية المألوفة طالما لا يعلن أهله العداء للدولة ، كما أن الاقليم كان فقيرا فلم يكن مغريا للعثمانيين .

وأما الامارات القائمة في اقليم نجد فقد سادتها علاقات الجفاء ، وكثيرا ما كانت الحروب تنشب بينها ، وتكاد كل امانة منها أن تكون منعزلة عن غيرها لا تربطها بها روابط سياسية معينة بحكم تجاورها ، ولم تكن الروابط التي تجمعها سوى العلاقات التجارية والجوار ووحدة الاتصال ، وأشهر الاسر النجدية الحاكمة في ذلك الوقت هي : « آل معمر » في « العينية » و « دهام بن دواس » في الرياض ، و « آل زامل » في « الخرج » ، و « آل سعود » في « الدرعية » (٦٢) .

أما أحوال اقليم برقة السياسية ، فقد خضع مع بقية اقاليم ليبيا منذ عام ١٥٥١ م للحكم العثماني الذي سيطر على السواحل دون الدواخل ، وعلى هذا أهمل اقليم برقة فلم يلق من عناية الدولة العثمانية أو اشرافها المباشر ما يستحق من اهتمام ، حتى إذا حكمت الولاية الاسرة القرمانلية حاول أمراؤها السيطرة على كل الولاية بما فيها برقة ، ثم عاد الحكم العثماني المباشر لجعل من برقة ولاية قائمة بذاتها عام ١٨٣٨ م (٦٣) .

ولقد حاول الحكام العثمانيون جمع السلطة في أيديهم ولكن أهل برقة لم يخضعوا للحكم الجديد ومن ثم حدثت ثورات فصادمات بين أهل البلاد والأتراك ، حتى بات الأتراك يتوقون الى ازالة هذا الشر المستطير ووضع حد للصدام وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ في البلاد ، فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الأكبر والمباشر الذي دعا العثمانيين الى الاعتراف بالسمنوسية ليس فقط كدعوة وطريقة بل كأمانة وسياسة (٦٤) .

-
- (٦١) ساطع الحصري : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٣٩ .
(٦٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٣ .
(٦٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٥٦ .
(٦٤) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٦ .

وأما في السودان فقد تكونت بعض الإمارات العربية الخاضعة لنفوذ غيرها أكثر قوة أو المستقلة بأمرها . وكان أشهر هذه الإمارات والسلطنات الإسلامية العربية سلطنتان أحدهما على النيل الأزرق أسسها « الفونج » في « سنار » ومؤسس هذه السلطنة وعاصمتها زعيم الفونج « عمارة دونقس » أول القرن العاشر الهجري (٩١٠ هـ الموافق ١٥٠٥ م) (٦٥) ، والسلطنة الأخرى عرفت بسلطنة دارفور في السودان الغربى ، وقد ظل الفونج يعتمدون على مصر في غذائهم الروحى . فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة في الجامع الأزهر ، وعادوا الى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية اسلامية (٦٦) .

ظل السودان مجزءا حتى تمت وحدة وادى النيل على يد محمد على أول العشرينات من القرن التاسع عشر ، وقد تم فتح أهم أجزاء السودان عام ١٨٢٥ م ، ثم استكمل الخديوى اسماعيل فتح بقية السودان ، وفي ظل الحكم المصرى أنشئت عاصمة للسودان هى مدينة الخرطوم عام ١٨٣٠ م ، وغيرها من المدن . كما استقر الأمن في ربوع السودان ، مما جعل الناس ينصرفون الى أعمالهم في الزراعة والتجارة والرعى ، كما أن الحكم المصرى شجع العلماء والمستكشفين للقيام بالرحلات العلمية لكشف منابع النيل (٦٧) . ولكن استعانة الحكم المصرى وخاصة في عهد الخديوى اسماعيل بالأجانب في عمليات الكشف وفي حكم اقاليم السودان كان له تأثير سيئ على السودانيين وعلى الحكم المصرى وبما ادى في النهاية الى تهئية الجو الذى اتاح للفقير محمد احمد أن يعلن دعوته بالثورة ضد السلطة الشرعية ..

ثالثا : الفكر الدينى المتكامل للدعوات السلفية :

انطلقت الدعوات السلفية الثلاث من منطلق دينى استنادا على التكوين الدينى لشخصيات أصحابها وحيث كانت الظروف الدينية للمسلمين تستدعى مخاطبتهم من الناحية الروحية أولا لتطبيق البرنامج

(٦٥) د . مكى شببكة : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٦٦) د . السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٤٨

(٦٧) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٠٢ .

الشامل لكل دعوة . وهذا يعنى انه كان لكل صاحب دعوة برنامجا شاملا في النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية . واختيار أصحاب الدعوات للجانب الدينى في البرنامج لتنفيذه يدل على اعتبار ان اصلاح هذا الجانب في نفوس المسلمين أساس لكل اصلاح ولكل ناحية .

والفكر الدينى عند أصحاب الدعوات السلفية (الوهابية ، السنوسية ، المهديّة) متكامل ومتشابه ، وان بدا بعض الخلاف في ناحية أو أكثر من نواحي هذا الفكر فأنما يرجع الى اختلاف في الظروف المحيطة بصاحب كل دعوة أو بمدى طموحه في تنفيذ برنامجه . والشيء الواضح في فكر أصحاب الدعوات الثلاث هو الدعوة الى رجوع المسلمين الى ما كان عليه السلف الصالح من سلوك دينى منذ زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو ما يطلق عليه المنهج المدرسي أو المنهج الملتزم .

كانت الدعوة الى التوحيد أو بمعنى أصح التمسك بوحداية الله هي المبدأ الاساسي الذي دعت اليه كل حركة سلفية ، فيفسر محمد بن عبد الوهاب هذا المبدأ بقوله : انى ادعو الى الله وحده لا شريك له ، وادعو الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى اوصي بها أول امته وآخرهم (٦٨) .

وشرح محمد بن عبد الوهاب مبدأ التوحيد مستندا الى ما جاء في القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة ، فقال : ان الله ذكر في القرآن الكريم كثيرا من الايات الكريمة التى تنطق بوحدايته كقوله : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وقوله : قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . والرسول الكريم يقول : من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل . وفي حديث عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبی صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لى : يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله اعلم ، قال فأن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال « لا تبشرهم فيتكلموا » (٦٩) .

(٦٨) حسين بن غنام : المرجع ص ٢١٥ .

(٦٩) محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد ... ص ٣٠٢ .

وقال أيضا عن التوحيد : ان التوحيد الذى دعت اليه الرسل من اولهم الى اخرهم هو أفراد الله بالعبادة كلها ليس فيها حق للملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عن غيرهم ، فمن ذلك لا يدعى الا اياه كما قال تعالى : وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا . فمن عبد الله ليلا ونهارا ثم دعا نبيا او وليا عند قبره فقد اتخذ الهين اثنين . ولم يشهد ان لا اله الا الله هو المدعو (٧٠) .

ويفسر عبارة « لا اله الا الله » بأن معناها ترك كل معبود غير الله والتوجه الى الله وحده . وان العبادة اذا جعلت لغير الله صار ذلك الغير الها مع الله وان لم يعتقد الفاعل ذلك (٧١) .

اى ان معنى « لا اله الا الله » - عند محمد بن عبد الوهاب - نفى صفة الاوهية عن كل المخلوقات واثباتها لله وحده واعتمد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في رايه هذا على ما جاء بالكتاب والسنة ، فأضاف أيضا ان عبارة « لا اله الا الله » هى الفارقة بين الكفر والاسلام ، وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى . وهى التى جعلها ابراهيم عليه السلام كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة اهلها وبغض من خالفها ومعاداته (٧٢) .

ويرتبط بمبدأ التوحيد عند الوهابية محاربة الشفاعة المتدعة اى الاستشفاع والاستغاثة بغير الله ، فيقول محمد بن عبد الوهاب : ليس ثمة فرق بين من يرجو البركة عند قبر ولى وبين من يعبد وثنا ، كلاهما قد جعل بينه وبين الله شفيعا يرجى ، وما كان كفار قريش الذين حاربوا دعوة التوحيد الا على هذه الصورة ، كانوا يعتقدون ان الله هو الخالق العظيم ، ولكن هناك آلهة دون الله يتصرفون وينفعون ويضرون ، ان هؤلاء الآلهة هى الطريق الى الله ، ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى (٧٣) .

ولا ينكر محمد بن عبد الوهاب شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام

(٧٠) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٣٢٣ .

(٧١) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٣٩٧ .

(٧٢) محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة عشر رسالة ص ٢٦٠ .

(٧٣) محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات .. ص ٢٢٠ -

يوم القيامة ، بل انه يعترف ايضا بشفاعة سائر الانبياء والملائكة والاولياء
ايضا ، ولكن محبة الانبياء والاولياء الصالحين ليست بالتوسل بهم ولكن
في متابعتهم فيما كانوا عليه من الهدى والدين (٧٤) . وان تسأل الشفاعة
من المالك لها وهو الله واذنه فيها لمن شاء من الموحدين فيقال : اللهم
شفع فينا نبينا محمدا يوم القيامة ، اللهم شفّع عبادك الصالحين أو نحو
ذلك ، وأما ما يجرى على السنة الناس من قولهم يا رسول الله أو يا ولي
الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركنى أو أغثنى أو نحو ذلك فانه من
الشرك ، اذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا اثر من السلف
الصالح (٧٥) .

واكد محمد بن عبد الوهاب أن الشفاعة كلها لله تعالى كما جاء في
القرآن الكريم : « قل لله الشفاعة جميعا » . وانها لا تكون الا من بعد اذن
الله ، كما قال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده الا بأذنه » . ولا يشفع
في أحد الا بعد أن يأذن الله فيه كما قال سبحانه وتعالى : « ولا يشفعون
الا لمن ارتضى » (٧٦) . ومع ذلك فان محمد بن عبد الوهاب لا ينكر زيارة
قبور الانبياء والاولياء والموتى عامة ولكن بشرط أن تكون هذه الزيارة
للدعاء للميت واتعاظ الزائر ، على أن تراعى فيها الطريقة التى سنّها
النبي صلى الله عليه وسلم للزيارة (٧٧) ، والا تبنى عليها قباب وأضرحة
ومساجد ، وعدم خروج النساء خلف الجنائز الى القبور وعمل احتفالات
سنوية عندها خاصة قبور الانبياء والاولياء وما يحدث فيها من رقص
وتمايل وشطحات وغير ذلك من الاعمال المحرمة أصلا ونهى محمد بن
عبد الوهاب عن استحداث بدع في الشرع الاسلامى عملا بقوله صلى الله
عليه وسلم « من استحدث بدعة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة » .

وأكمل محمد بن عبد الوهاب برنامجه الدينى بالدعوة لفتح باب
الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه من علماء المسلمين
لتحقيق الابداع في التشريع لمواجهة متطلبات العصر والمشكلات التى تواجه
المسلمين وليس لها من نص صريح في القرآن والسنة وآثار السلف الصالح
يعالجها ، وجاءت دعوة محمد بن عبد الوهاب هذه استنادا الى أن الله

(٧٤) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٧٥) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ .

(٧٦) محمد بن عبد الوهاب : كشف الشبهات ... ص ٢٣١ .

(٧٧) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ .

وحده هو الذى يحلل ويحرم ، وأن كلام المتكلمين في العقائد وكلام الفقهاء في التحليل والتحرير ليس حجة علينا ، والحجة الوحيدة هى في القرآن والسنة منهما تستنبط الاحكام وفيها فطنة العقائد (٧٨) . ورغم أن الامام أحمد بن حنبل كان مذهبه نبراس محمد بن عبد الوهاب في استنباط الاحكام الا انه اعتبر الائمة الاربعة دون المعتزلة والشيعة والمتصوفين هم من تؤخذ احكامهم .

وكان الفكر الدينى عند السنوسية لا يختلف في جوهره عن فكر الوهابية الدينى حيث تمثل في الدعوة الى الرجوع بالمسلمين والدين الاسلامى الى ما كان عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده ، ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الاصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام دون الاجماع والقياس المتأخرين (٧٩) . ولم تكن هذه الدعوة الاصلاحية تدعو الى الرجوع بالاسلام الى ما كان عليه في ايامه الاولى فقط ، بل قرن صاحب الدعوة بضرورة العمل بالقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة قرن ذلك بعدم الاكتفاء بالاذكار والاوراد - كما تسير الطرق الصوفية - او الاعتماد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل الجدى ومراعاة احكام الشريعة الاسلامية في الاعمال الخاصة والعامة كما كان العهد في أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده (٨٠) .

وكان معنى هذا ان السنوسية تدعو الى تطهير الاسلام من البدع والخرافات التى عقلت به ، وذلك يتم بالعودة الى اصول الاسلام الاولى ، والبعد عن الحركات المسموح بها في الطرق الصوفية كالفناء والرقص واظهار الكرامات والمعجزات او الشطح والتمايل ، وايضا الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كأصلين للدين الاسلامى ، الى جانب عدم الشرك بالله لانه جلت قدرته الواحد الاحد ، ويتم ذلك بعدم التضرع الى الاولياء أو الشيوخ الحجرية التى لا تنفع ولا تضر ولان ذلك ينهى الله عنه (٨١) .

(٧٨) د. محمد بديع شريف : المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٧٩) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٨٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٣٦ .

(٨١) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

وتضمن الفكر الدينى للسَّنوسية - كما هو الحال عند الوهابية - كذلك اعتبار باب الاجتهاد مازال مفتوحا ، ومن ثم يجوز الاجتهاد في مسائل الدين الاسلامى التى تواجه المسلمين بشرط ان يراعى المجتهد اُصلى الدين الاسلامى الوحيدين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والاحكام التى نصا عليها . والدعوة الى فتح باب الاجتهاد التى سبقه اليها كل من « احمد بن تيمية » « ومحمد بن عبد الوهاب » لها ما يبررها خاصة وقد تحجرت الافكار عند علماء المسلمين بسبب اتجاههم نحو التقليد دون التجديد .

ورغم أن محمد بن على السنوسى قد درس الطرق الصوفية المنتشرة على مسرح الحياة الدينية الاسلامية في العالم العربى ، فانه خالف المتصوفين الذين يبالغون في اشكال الحماسة الخاصة بالذكر ، وقصر الذكر في دعوته على اسم الجلالة وجعل لها ما يعرف باسم « الورد » ، ومنع الاستعانة بالدُفوف والمواكب والحركات العنيفة التى ترمى الى ازدياد حماسة الاشخاص في الذكر بهز الاجسام بشكل خاص (٨٢) . وبهذا وضع اساسا صحيحا للتصوف يبعده عن الابتذال ويقربه من العبادة .

وفي نفس الوقت دافع محمد بن على السنوسى عن المتصوفين الخالصين ومذهب التصوف الحق فقال : قد يسرى في وهم من ليس له رسوخ قدم في علم القوم أن احوال الصوفية بعضها مبين لما عليه علماء الشريعة كما فاه فيه بعض الجهلة تغالبا او تنقيصا ، فاعلم أن سبيل القوم رضى الله عنهم اتباع النبى صلى الله عليه وسلم في الجليل والحقير ، وكلما ازداد أحدهم اتباعا كلما ازداد كمالا ، لكون الكمال الكلى عندهم في كمال الاتباع ، والا فليس منهم او ناقص عندهم فان أعمالهم موزونة بميزان الشريعة ، فمارجح فيه قبلوه وما لا يرجح نبذوه (٨٣) . وأكد أن من يتصف بهذا الكمال في الاتباع بالتوجه الدائم الى المولى عز وجل في طلب العون والمؤازرة وخشيته دائما وعمل ما يأمر به والابتعاد عما نهى عنه فان رحمة الله واسعة وعنده نعيم مقيم لا أول له ولا آخر (٨٤) .

(٨٢) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٤١ .

(٨٣) د. احمد الدجاني : احاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين ١٨ ، ١٩

ص ٧٨ - ٧٩ .

(٨٤) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٦ .

وسار الفكر الدينى للمهدية على نفس النسق الذى سار عليه الفكر الدينى عند الوهابية والسنوسية ، اذ دعا محمد احمد المسلمين الى التمسك بوحدانية الله . وجعل التعبد لله وحده . وتحريم التطلع للاولياء وزيارة قبورهم . والامتناع عن شرب الدخان . وعدم استخدام فاحش القول وشرب الخمر . وعدم الاستماع الى الموسيقى او الاشتراك فى الرقص ، وضرورة تبسيط حفلات الزواج (٨٥) . وتوجيه الناس الى الكتاب والسنة ومحاربة البدع وغير ذلك من امور الشريعة كفرض وجباية الزكاة من المسلمين وتوزيع الغنيمة توزيعا شرعيا وهذه امور كلها تتطلب الاستعانة بالعلم الاصيل والدراسة الفقهية العميقة ، والتعمق في فهم النصوص التى وردت في القرآن والسنة ، ومحاولة الاستنباط استنباطا يفوق جمهرة التابعين (٨٦) .

ودعا محمد احمد ايضا الى العودة بالتشريع الى عهوده الزاهرة ، الى عصر الاجتهاد الاول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الاربعة . وقال في ذلك ان الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة ، والهجرة بالدين مما عليه من الانطباعات الزمنية (٨٧) . اى انه هاجم توزيع المسلمين بين اربعة مذاهب شافعية ومالكية وحنفية وحنابلة . ثم تفرقهم بعد ذلك بين طرق صوفية مختلفة لم يؤد الا الى اضعاف الاسلام ، ووجد ان الطريق الى الله واضح جلى في كل من القرآن والسنة وان معرفتهما كافية للمؤمن الحق (٨٨) . ومن ثم دعا الى الاجتهاد في الاسلام قائلا : **وم العبد الا الاعمال** الموافقة للسنة والكتاب . من لم يجتهد على ذلك بشق الانفس خسر الدارين (٨٩) .

واضاف محمد احمد المهدي الى ما سبق من مبادئ دعوته الى اقامة الحدود الشرعية مثل قطع يد السارق . ورجم الزانى ، وينتهج طريقة المرابطين حين يعاقب على ترك الصلاة (٩٠) . ولكنه اشتط حين اعلن : ان

-
- (٨٥) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ .
 (٨٦) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٨ .
 (٨٧) نعوم شقير : تاريخ السودان .. ح ٣ ص ١٣٧ .
 (٨٨) د. جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٣ .
 (٨٩) نعوم شقير : المرجع السابق ص ١٤٥ خ
 (٩٠) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ١٢٤ .

من شك في مهديتنا وانكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة (٩١) .
وقد الزم أتباعه ببيعة نصها : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي
الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله . اما بعد فقد بايعنا الله ورسوله
وبايعناك على توحيد الله ، والا تشرك به أحدا ، ولا تسرق ولا تزني ، ولا تأتى
ببهتان ولا تعطيل في معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا
بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى ان تفرض الجهاد (٩٢) .

رابعا : المضمون الاجتماعي عند الدعوات السلفية :

يشيع بين البعض ان دعوات الاصلاح السلفية ذات مضمون ديني فقط
وليس لها مضمون اجتماعي ، اى ان اصحاب هذه الدعوات لم يكن لهم برنامج
اجتماعي ، والحقيقة غير ذلك لان برنامج الاصلاح عند كل صاحب دعوة
سلفية كان برنامجا شاملا موجها الى مجتمعات ذات تراث دخلته شوائب ،
والاصلاح الاجتماعي امر له اهميته لنجاح مبادئ الاصلاح الشاملة .

فاذا بدأنا بالمضمون الاجتماعي في فكر الامام محمد بن عبد الوهاب
باعتباره صاحب اول دعوة سلفية ناجحة في الوطن العربي لوجدنا هذا
المضمون يتمثل في قيامه برحلات الى الحجاز حيث ادى فريضة الحج وزار
قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، واجتمع هناك الى فقهاء
وعلماء من مذاهب سنية متنوعة ، ورأى ما يحدث امام قبر الرسول عليه
الصلاة والسلام من بدع ومن نداءات شركية وطلب الفوت والشفاعة ، وسمع
من استاذة وصفا لهذه الاعمال بقوله استنادا الى قول الله تعالى :

« ان هؤلاء متبرماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون » (٩٢) .

وقام محمد بن عبد الوهاب برحلة اخرى الى العراق حيث مكث بمدينة
البصرة اربع سنوات شاهد خلالها ما يفعله غلاة الشيعة عند قبور واضرحة
الاولياء وآل البيت من تقديس واعمال تدل على الجهل والضلالة ، فأخذ
ينتقد هذه الاعمال حتى ضاق به اهل البصرة واستنكروا صراحته في نقد

(٩١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٩٢) نفس المرجع ص ١٣٩ .

(٩٣) عبد العزيز آل الشيخ : تعقيب على كتاب الدعوة الوهابية لعبد

الكريم الخطيب ص ٤٧ .

أفعالهم المنافية لجوهر الدين الاسلامي فأخرجوه من بلدهم فحدثته نفسه بالذهاب الى الشام ولكن ضيق ذات اليد جعله يعدل عن فكرته هذه ويتجه الى بلدة « حريملا » بنجد وفيها أعلن دعوته .

وتجلت شمولية الدعوة الوهابية في التفكير في نشرها بين المجتمعات الاسلامية في شبه الجزيرة العربية وخارجها ، وفي منع خروج النساء خلف الجنائز الى القبور ، وغير ذلك من امور اجتماعية تشوه صورة المسلمين وتبعدهم عن الاسلام . ان قطع « ذكر » للنخيل كان الناس يتبركون به . وقطع شجرة عرفت باسم « شجرة الذيب » كثر زوارها وقاصدوها . واقامة الحد على امرأة من بلدة العيينة « اعترفت بارتكاب الزنا بعد ان تأكد الامام من سلامة عقلها وصحة فعلتها » كل ذلك مضامين اجتماعية سعى الامام محمد بن عبد الوهاب الى توجيه مجتمع نجد اليها وادراك حقيقتها خاصة بعد ان قام جماعة ممن كانوا مستمتعين ببعض الاباحات الكاذبة التي خلفتها لهم دولة القرامطة بصرخون ويحتجون على أفكار الوهابية الاصلاحية .

ولا يقلل من وجود مضمون اجتماعي في فكر محمد بن عبد الوهاب مقاومة بعض القبائل في شبه الجزيرة العربية لمبادئ الدعوة الوهابية ، لان هذه المقاومة هي نتيجة لما طبعت عليه تلك القبائل من حب القتال والاغارة على من جاورهم أو الهجرة الى ارض جديدة . وشيوع العصبية المحلية القبلية التي تمزق المجتمع واستمرار غارات السلب والنهب والغزو كمصدر للعيش في الصحراء ، الى جانب عدم المثول لسلطة الغير والقتال في سبيل عدم الانضواء تحت راية قبيلة أخرى مهما كانت هذه القبيلة ذات رسالة للاصلاح .

ولم يكن الجانب الاجتماعي في الدعوة السنوسية يبعد عن جوانبها الدينية والسياسية . ذلك ان الجانب الاجتماعي عند السنوسية يتمثل في نشر فضائل الاسلام عن طريق الزوايا التي مارست دورا كبيرا بل الدور كله تقريبا في نشر الدعوة السنوسية ليس فقط في برقة بل في غيرها من الاقطار العربية امتدادا من الحجاز مرورا بمصر حتى اقطار الشمال الافريقي ، وايضا نشر الدين الاسلامي بين شعوب غرب ووسط افريقيا الوثنيين (٩٤) .

ويتضح الجانب الاجتماعي في فكر الامام محمد بن على السنوسي من كلماته لاحدى القبائل حيث جاء فيها : انا نريد ان ننشر السلام بينكم وبين الاعراب الذين يغيرون على بلدكم ويستعبدون اولادكم ، ويتزنون اموالكم ، وانا بعملنا هذا نقوم بما امر الله به في كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » ، ويقول سبحانه وتعالى ايضا : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى المساكين والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم (٩٥) .

كما تمثل الجانب الاجتماعي عند السنوسيين في دعوة امامهم اياهم بعدم الاقتصار على العبادة والتصوف بل دفعهم الى ان يكونوا عبادا عاملين منتجين في الزوايا التي تضم الى جانب المسجد والمدرسة المزرعة والمتجر ، يقوم المسلمون فيها بالعمل في شتى المجالات التي تحويها الزاوية ، ولعل خير ما يمثل هذه الروح التي ارادها صاحب الدعوة ان تكون روح الجميع ، هو ان بناء الزاوية نفسه كان يقوم به اهل القبيلة او القبائل التي تبنى في أرضها الزاوية ، فالزاوية اذن منذ وضع حجرها الاساسي كانت رمزا للنشاط والانتاج (٩٦) .

وقد أمكن للدعوة السنوسية بفضل دعائها وزواياها المنتشرة بين القبائل في برقة وغيرها من الاقطار العربية والافريقية ان تؤاخي بين القبائل المتدبرة وان تؤلف بينها وتعلمها كيف يكون الاخاء وكيف يكون الايثار ، حتى اصبحت كلمة « الاخوان » تعنى الوفاء والاخلاص ، وتذكرنا بالاخوة الاسلامية في عهدها الاول (٩٧) . الى جانب تحويل المناطق الفقيرة ومعازل قطاع الطرق الى اماكن امن يأوى اليها الناس للاهتداء الى سواء السبيل وحفظ القرآن الكريم ومدارسه العلوم الدينية واللغوية .

وعلى هذا فان تأثير الدعوة السنوسية الاجتماعي كان انقطاع الخلافات بين القبائل العربية التي اخذت ترتبط فيما بينها برباط الدعوة السنوسية والاخوة الاسلامية ، وانقطعت الاغارات على المضارب وامن المسافرين في

(٩٥) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٩٦) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٩٧) جامعة السيد محمد بن على السنوسي الاسلامية .. ص ١٦ .

الصحراء من غزوات قطاع الطرق ونهبهم لامعتهم ، فانصرف الناس الى الانتاج الزراعى في ارض الزوايا والى الرعى في مراعى الزوايا ، وسارت قوافل التجارة في امان لخير الناس دون ان تتعرض لما كانت تتعرض له من قبل من مصاعب في الوقت الذى تعددت فيه الزوايا بتعدد القبائل (٩٨) .

وحرص الامام محمد بن على السنوسى ان يجعل من اتباعه ومن شيوخ الزوايا بصفة خاصة قدوة في المعاملات الاجتماعية ، اذ رأيناه يوصي العلامة ابن الشفيح خليفته في زاوية المدينة المنورة بقوله : وحسنوا اخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير وللصغير ، واتبعوا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفقوا فان الرفق ما كان في شيء الا زانه ، وان الحزم ما كان في شيء الا شانه ، وارفعوا هممكم عن الخلق وقال : عليكم بالمناصحة والمذاكرة وارشاد عباد الله اليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى البر اعوانا (٩٩) .

وخلاصة القول ان الزوايا السنوسية كانت مجتمعات متكاملة يقوم فيها كل فرد بالواجب المناط به كمواطن مسلم وينال حقه كاملا وهى خلايا اجتماعية ومراكز ثقافية اسلامية ساهمت عن طريق رجالها بالوظيفة الشاملة التى ارادها لها مؤسس الدعوة السنوسية ، تلك الوظيفة التى لم تقتصر على الناحية الاجتماعية والدينية بل تعدت ذلك لتشمل النواحي التعليمية والاقتصادية والاستراتيجية .

واما ما يختص بالمشغول الاجتماعى في فكر الامام محمد احمد المهدي ، فانه ينبع من كونه ينحدر من قبائل «الكنوز» الذين يقيمون في النوبة وينتمون الى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وانتسابه الى قبائل الكنوز قد جنبه الانتساب لاحدى المجموعتين القيليتين العربيتين الكبيرتين في السودان وهى « جهينة » « والجميلين » المتنافستين بل المتعاديتين فتجنب بذلك عدااء مجموعة لم ينتسب اليها (١٠٠) ، واتجه بدعوته الى التنظيمات القبلية الاقل قوة من تلك المجموعتين والتى سارعت الى تأييده تحقيقا لمفهم أو تأثرا بدعواه وشخصيته .

(٩٨) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٩٩) جامعة السيد محمد بن على السنوسي الاسلامية ، الملاحق .

(١٠٠) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٣ .

وانطلاقاً من اختلاط محمد احمد المهدي بالناس على جميع المستويات اثناء ترحاله في طلب العلم ادرك مدى ما يقاسونه من مظالم وفقر وبؤس ومدى ما هم فيه من ضلالة وخرافات ، فدعا الى تبسيط بعض مظاهر حياة الناس الاجتماعية مثل خفض المهور عند الزواج ، ومنع النساء من لبس الذهب والفضة ، والنهي عن شعر العارية اى خروج النساء مكشوفات الرأس ، وعدم الاحتفال بالأعراس ، ومنع البكاء وراء الميت وابطال السحر والتعزيم (١٠١) . كل تلك مبادئ اجتماعية رأى محمد احمد انها تنقى المجتمع العربى في السودان من الخرافات وتقوى من عوده لى يواجه الحكام الظالمين .

اعتمد محمد احمد المهدي منذ البداية على التنظيمات القبلية لانجاح دعوته ، ومن بعده سار خليفته عبد الله التعايشي على نفس السياسة ، فوجدنا المهدي لى يزيد من انصاره يحاول استرضاء القبائل بأباحة تجارة الرقيق بعد ان كانت الحكومة تحرم هذه التجارة ، لان تجار الرقيق كانوا يمثلون في البلاد طبقة قوية من الاعيان والتجار وزعماء القبائل الذين كانت في يدهم الثروات الكبيرة والذين راوا في المهدي ما يحقق مصالحهم . هذا بالإضافة الى جهل الاهالى وسرعة تصديقهم للخرافات والاوهام واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدي المنتظر ، فأقبلوا على دعاوى محمد احمد يصدقونها ويؤمنون بها دون تفكير ولا تحقيق (١٠٢)

وكان لشخصية محمد احمد المهدي تأثير قوى في نفوس مريديه وانصاره ، فعن طريق قوة شخصيته استطاع ان يجمع حوله الانصار وان يبعث فيهم روح الطاعة لاوامره والاستخفاف بالموت في سبيل تأييد دعوته ، ولقد كان لمزاياه الشخصية وما عرف عنه من الزهد والصلاح والتقوى وايمانه بدعوته وذكائه وحزمه ، اثره في نجاح دعوته وفي انتصاره على قوات الحكومة في عدة معارك .

ومما يؤكد ارتباط المضمون الاجتماعى للمهدية بشخصية محمد احمد ان زعامة المهدي اثناء حياته وسمعته وشهرته الشخصية كزعيم دينى قبل اى اعتبار آخر كفت عندئذ لتوجيه دعوته ، فعاشت هذه الدعوة التى اتخذت طابع الثورة من غير تنظيم لان زعامة المهدي اغنت عن التنظيم في هذه

(١٠١) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٨ .

(١٠٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١١ .

المرحلة (١٠٣) : إلا ان المهديّة بعد موت صاحبها عاشت فترة من الانقسامات والخلافات بين القبائل وحكومة الخليفة عبد الله التعايشي .

خامسا : الاتجاهات السياسية في الدعوات السلفية :

كان للدعوات السلفية اتجاهات سياسية حرصت على الأخذ بها والاعتماد عليها في نشر الدعوة ومبادئها ، ولقد تشابهت الدعوات الثلاث في ان يمسك العرب زمام حكم انفسهم بأنفسهم ليتمكنوا من تطبيق المبادئ السلفية ، خاصة ان الدولة العثمانية كانت تمسك بزمام الامور في معظم البلاد العربية وتخضعها لسيادتها عن طريق حكام غير عرب . كما ان الحكم العثماني مسئول عما اصاب العرب المسلمين من تخلف وشيوع الجهل والفقر بينهم نتيجة العزلة التي فرضها العثمانيون على الاقطار العربية الى جانب ما اتسم به الحكم العثماني من رجعية وعدم تجديد .

واذا كانت الدعوة الوهابية قد انطلقت من نجد بشبه الجزيرة العربية ونجد لم تطأها قدم العثمانيين . فان سيطرة العثمانيين على الحجاز والعراق واليمن بل والاحساء والكويت ثم قطر قد احاط بنجد بحيث يقف الوجود العثماني حائلا دون امتداد الدعوة .

وحيث وجد محمد بن عبد الوهاب انه في حاجة الى قوة سياسية تكون صنوا لدعوته الدينية وتعمل على نشرها داخل نجد وخارجها ، فقد تمثلت تلك القوة في الاسرة السعودية التي تنتسب الى قبيلة عنزة احدى قبائل ربيعة، والتي يعد سعود بن محمد بن مقرن مؤسسها باعتباره اول من سيطر على منطقة الدرعية ، وبعد وفاته عام ١١٣٧ هـ الموافق ١٧٢٤ م تعاون ابناؤه فيما بينهم على بسط نفوذهم في هذه المنطقة حتى وفد اليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتعاهد مع الامير محمد بن سعود على تطبيق ونشر المبادئ الدينية الاصلاحية (١٠٤) .

وقام تحالف محمد بن عبد الوهاب والامير محمد بن سعود على دين الله ورسوله والجهاد في سبيل الله واقامة الشريعة الاسلامية والامر بالمعروف

(١٠٣) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٥ .

(١٠٤) د. حسن سليمان محمود : المملكة العربية السعودية ص ٧٢ .

والنهي عن المنكر ، وان يظل الامام - محمد بن عبد الوهاب - مقيما في الدرعية لا يبارحها ولا يتحلل من هذا التحالف ، وجاء تعهد الامام للامير السعودي في العبارة الماثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل المدينة : « الدم بالدم والهدم بالهدم » (١٠٥) .

كان التحالف بين محمد بن عبد الوهاب والاسرة السعودية في الدرعية بداية لنشر الدعوة الوهابية في بقية بلاد نجد وانحاء شبه الجزيرة العربية وبداية للصدام مع الدولة العثمانية ، وقد انطلق الحليفان لنشر الدعوة خارج الدرعية باعداد الجيوش التي توجه لرد المهاجمين والمناهضين للدعوة، وارسال الرسائل الى الحكام والامراء للدخول في الدعوة (١٠٦) ومما يجب ملاحظته ان الامام محمد بن عبد الوهاب اهتم بالجانب الديني للدعوة وترك شئون الحكم والسياسة لآل سعود وقد تم ذلك في تناسق كامل انطلاقا من التحالف بين الطرفين ، وسارت الدعوة الوهابية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب على نفس السياسة اذ اهتم ابنائه وعلماء الدعوة بالناحية الدينية بينما استمر آل سعود يحكمون ويعملون على نشر مبادئ الدعوة التي صارت مذهباً تدين به الدولة السعودية وتعمل في ظله وتسمى لنشره وتحارب من اجله .

وكانت الاتجاهات السياسية عند الدعوة السنوسية تقسوم على أن الدين الاسلامي لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة منذ زمن الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين وخلفاء بنى امية وبنى العباس بل وحتى سلاطين آل عثمان في تركيا جمعوا في يدهم السلطتين الدينية والزمينية ، وحيث أن الاسلام كان ديناً وسياسة فانه منوط بصاحب الدعوة ان يجمع بين الصفتين الدينية والسياسية لتدبير شئون الدنيا للمسلمين الى جانب شئون الدين (١٠٧) .

وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية وسيلة لانشاء الامارة لانها اوجدت بفضل النظام الدقيق الذي وضعت له الطريقة نوعاً من السيادة الدينية

(١٠٥) كناية عن الارتباط الوثيق بينهما كل منهما ولى دم الآخر بطلب به ويشأر له ويهدم بيت أعدائه اذا هدموا بيته . عبد الكريم الخطيب ، المرجع السابق ص ٦٦ .

(١٠٦) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(١٠٧) نفس المرجع . ص ٢٢٦ .

والدنيوية معا على خير ما يقيمه الاسلام من أسس لذلك . حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه الدعوة (١٠٨) ، عن طريق الشيوخ والاخوان والدعاة الذين يختارهم صاحب الدعوة ويعدهم اعدادا دينيا وسياسيا يؤهلهم لقيادة القبائل التي توجد بأرضها الزوايا السنوسية .

ومما يؤكد الاتجاه السياسي للدعوة السنوسية الى جانب التنظيم المحكم لإدارة الزوايا دعوة محمد بن علي السنوسي اتباعه بالاستعداد الحربي بتعلم الرماية واستخدام السلاح وركوب الخيل وعدم الاكتفاء بتعلم العلم او ممارسة العبادات والشعائر الدينية لان المؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف ومن ثم طلب من كل فرد من الاخوان السنوسيين ما دام قادرا وغير عاجز او مشغول ان يكون مستعدا للطوارئ متهيئا للحرب منتظرا للأمر منفذا له بكمال طاعته ، ومن كان فقيرا فسلحه وراحلته من الزوايا أتباع لها او من اغتباء الاخوان انفسهم (١٠٩) .

وكان تسليح السنوسيين دليلا على وضع الاساس المادي للامارة السنوسية بوجود قوة عسكرية جاهزة ومستعدة للدفاع عن الدعوة والامارة ضد اعدائها سواء كانوا من القوى المحلية او الخارجية ، وقد اثبت السنوسيون وجودهم في مواجهة الغزو الفرنسي لغرب افريقيا اواخر القرن التاسع عشر ، وفي مواجهة الغزو الايطالي لليبيا اوائل القرن العشرين .

كما تمثل الاتجاه السياسي عند السنوسية في وصية صاحب الدعوة باسناد رئاسة الدعوة والامارة الى الاكبر الارشد من الاسرة السنوسية ، بالاضافة الى اتباع نظام البيعة الاسلامي ، اذ عمل محمد بن علي السنوسي في حياته على تقديم ابنه الاكبر « محمد المهدي » للصلاة والبسه السيف وخلع عليه عباءة « جردا » وصافحه دليلا على المبايعة ، ومن ثم تقدم كل الحاضرين من افراد الاسرة السنوسية ومن الاخوان الى مصافحة - مبايعة - محمد المهدي . فكانت تلك المبايعة قبولاً منهم في حياة صاحب الدعوة نفسه . وبذلك جمعت السنوسية في نظام الحكم

(١٠٨) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين دولة ص ٤٥ .

(١٠٩) نفس المرجع ص ٥٢ .

بين مبدأ الوراثة الصلبية والعمل بمبدأ الشورى ، وحقت في هذا بعض شروط الامامة (١١٠) .

وهكذا جاء الاتجاه السياسى عند السنوسية مرتبطا بالجانب الدينى في شخص صاحب الدعوة الذى نادى بالعودة الى السلف الصالح في الامور السياسية الى جانب النواحي الدينية والاجتماعية حيث كانت شروط الخلافة الاسلامية تقوم على اعتبار الخليفة عربى مسلم قرشي ومن بيت النبوة وهذه الشروط تنطبق عليه . ومن ثم انتقد سيطرة الدولة العثمانية على العالم العربى بسبب مسئوليتها عن تمكين العناصر التركية من الغلبة على شعوبها العربية واقامة الحكومة الاستبدادية في بلاد هذه الشعوب (١١١) .

وفي هذا الاطار اختلفت السنوسية عن الوهابية في الشكل ، اذ بينما ترك محمد بن عبد الوهاب شئون الحكم والقوة والسياسة للأسرة السعودية في اطار التحالف الابدى بين الطرفين ، جمع محمد بن على السنوسى السلطين الدينية والزمينية في يده وفي يد بنيه من بعده حتى اقيمت آخر الامر الامارة السنوسية ثم المملكة « السنوسية » .

وأما الاتجاه السياسى عند المهديّة فقد قام على ايمان محمد أحمد بارتباط الدين بالسياسة أى بين الظواهر الدينية والامور السياسية ، اذ أنه اعتبر هذين الميدانين متصلين ومرتبطين أحدهما بالآخر تمام الارتباط ، كما كان عليه الحال في العصور الاسلامية الاولى ، فكان رأس الدولة هو أمير المؤمنين وأمامهم ، وكان على هذا الشعب ان يطيعه ما لم يوصه بمعصية الخالق ، والمهدى يتفق في هذا مع السنوسية ، الا أنه كان يهدف الى هدم الحكومة القائمة أولا ثم اقامة حكومة دينية في مكانها تعمل على تطبيق الشريعة ، ويصبح هو - أى محمد أحمد - رئيسها الدينى والزمنى في آن واحد (١١٢) .

ولم يتوجه محمد أحمد بمبادئه الإصلاحية الى الحكومة القائمة ، وهى الحكومة التى يرأسها حكمدار يعينه باشوات مصر من أسرة محمد

(١١٠) د. محمد شكرى : المرجع السابق ص ٥٥ .

(١١١) نفس المرجع ص ١٧ .

(١١٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥ .

على منذ فتح السودان عام ١٨٢١ م ، لانه اخذ على رجال الحكم ابتعادهم عن تعاليم الاسلام ، وانما توجه بمبادئه الى القبائل السودانية التى رحبت في معظمها بالدعوة المهدية لتحقيق مغانم اقتصادية وسياسية كأباحة تجارة الرقيق والغاء احتكار الحكومة لمعظم السلع المهمة بالسودان ، وكان على رأس المؤيدين للمهدية قبائل البقارة العربية وقد ايد زعيمها عبد الله التعايشي الدعوة المهدية وحاول ان يجعل محمد أحمد يعلن انه « المهدى المنتظر » على شريطة ان يستوزره (١١٣) .

وتجلى الاتجاه السياسي للمهدية ايضا في القاء محمد احمد باللائمة على الاوروبيين فيما حدث للدين الاسلامى والمسلمين من أحداث بدلت احوالهم الى الاسوأ . وخاصة الانجليز الذين سيطروا على الامور حتى في مصر ذاتها ، كما انه هاجم الخديوى توفيق لأنه أحل للانجليز الذين جاءوا بكبرهم رخيلائهم الدماء والاموال والاعراض ، وهذا ليس من صفات الحاكم العادل المسلم الحق ، وان الاسلام يدعو الى طرد هذا العدو . وان يكون المسلمون يدا واحدة على اقامة الدين واخراج اعداء الله من بلاد المسلمين ، لان هؤلاء الاعداء قد ظلموا امة محمد ، وان رد الظلام لا يتم الا بالقضاء عليه (١١٤) .

ولم يكتف المهدى بالدعوة لطرد الاوروبيين ، بل طالب بطرد المصريين من السودان باعتبار ذلك الوسيلة التى يمكن عن طريقها تقرير العدالة . ورفع الظلم ، وليمأ السودانىون المناصب التى يشغلها الاوروبيون والمصريون . ولرفع البؤس واليأس عن السكان الوطنيين (١١٥) ، والتخلص من سوء الادارة التى نشأت بسبب استخدام البريطانيين في عمليات التوسع والحكم المصرى في السودان (١١٦) ، واعلن محمد أحمد وجوب الامتناع عن دفع اية ضريبة غير العشور او الزكاة فقط التى نص عليها الكتاب الكريم ، ثم دعا الى شيوع الملكية فلا يستأثر مؤمن بمال او عقار دون اخيه المؤمن ، بل يجرى توزيع الثروة على الجميع بالتساوى (١١٧) .

كما تمثلت الاتجاهات السياسية عند المهدية في كونها حركة عالمية لا محلية تريد ان تمتد يد الإصلاح الى الاقطار الاسلامية كلها . ويظهر ذلك

(١١٣) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩٢ .

(١١٤) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٣٧٤ .

Hamilton : The Anglo Egyptian Sudan. P. 67.

(١١٥)

Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959) P. 79.

(١١٦)

(١١٧) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٩١ .

من كتب ورسائل المهدي وخليفته عبد الله التعايشي الى الملوك والزعماء في الاقطار العربية والاسلامية ، وقد اهتز لحركته المسلمون جميعا وراوا فيها رغبة مخلصه لاصلاح احوال المسلمين ، وقد جاءت الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب (١١٨) ، كما تظهر تلك الدعوة العالمية من فكرته بتأسيس دولة اسلامية مترامية الاطراف تكون عاصمتها مكة المكرمة .

وكان المهدي يسعى الى وحدة وادي النيل تحت زعامته وان كان لم يرسل جيشا لضم مصر في حياته بسبب وفاته المفاجئة بعد سقوط الخرطوم في يده بخمسة شهور تقريبا ، فقد وجه خليفته عبد الله التعايشي ثلاث رسائل في مارس ١٨٨٧ م الى كل من السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية والخيوي توفيق باشا مصر والملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى يدعوهم فيها الى اعتناق المهديّة قبل ان تطأ جيوشه بلادهم وتنتقم منهم ، وكان غرضه خصوصا من الكتابة الى هؤلاء الثلاثة الحصول على اعترافهم بحكومته (١١٩) . وحتى يامن على بقاء السلطة في يده وانتقالها الى ذريته من بعده ، ويحقق في نفس الوقت امل المهديّة في السيطرة على كل وادي النيل شماله وجنوبه ، ثم ارساله جيشا يقوده عبد الرحمن النجومي لغزو مصر في مايو ١٨٨٩ م ، ولكن هذا الجيش لقي الهزيمة فتوقفت مشروعات المهديّة لضم مصر الى السودان تحت راية المهديّة .

وكان من الاتجاهات السياسية عند المهديّة ايضا التعاطف مع الحركة الوطنية العراقية في مصر ، واذا كان عرابي لم يخف وهو في منفاه تأييده وميله الى المهدي واصلن انه كان ينوى تعيينه حاكما عاما على السودان (١٢٠) . فان المهدي كان يعطف على عرابي ، ولعل قيام عرابي ضد الحكومة المصرية الخديوية قد صادف هوى في نفسه مما شجعه على تقليده وجعله موضع عطفه وتقديره (١٢١) ، ويذكر البعض ان المهدي - اثناء حصار الخرطوم في

(١١٨) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٩ .

(١١٩) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٢٥ .

(١٢٠) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٢١) ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ح ١

ص ٣٩٨ .

يناير ١٨٨٥ م - أمر رجاله بالمحافظة على حياة جنرال غوردون . الانجليزى المكلف باخلاء السودان من المصريين ، قائلا : انى اريد ان افتدى به احمد عرابى باشا (١٢٢) . وهذا الاتجاه السياسى يدل على عمق الروابط بين الشعبين المصرى والسودانى ووحدة وادى النيل .

ومن الاتجاهات السياسية عند المهديّة كذلك محاولة اقامة تحالف مع السنوسية في برقة لغزو مصر ولنشر المهديّة في شمال وغرب افريقيا ، ولكن زعيم السنوسية - محمد المهدي - رفض الانضمام الى المهديّة بسبب العنف الذى صحبها في الانتشار بالسودان خاصة ما كان يجرى بعد الانتصار في المعارك العسكرية على قوات حكمادريّة الخرطوم من قتل للانفس البريّة وسلب لاموال الناس وهتك للاعراض . ومن ثم راينا « محمد المهدي السنوسي » يطلب الى الشعوب الاسلامية في افريقيا خاصة في سلطنات « واداي » و « برنو » والبلاد المجاورة ان تمتنع عن تأييد « مدعى المهدي » محمد احمد (١٢٣) .

كذلك من اتجاهات المهديّة السياسية ادعاء محمد احمد ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ياتيه في المنام ، وعندما انتقل من جزيرة « آبا » الى « جبال النوبا » بكردفان اطلق على هذا الانتقال هجرة ومن صحبه من الاتباع مهاجرين ، كما اطلق على اهل كردفان الذين استقبلوه في ارضهم وسمحوا له بالبقاء فيها ، اسم الانصار (١٢٤) ، كما انه اتخذ له اربعة خلفاء تشبها بالخلفاء الراشدين : كان الخليفة الاول عبدالله التعايشي زعيم قبائل البقارة ، وعرض محمد احمد على « محمد المهدي السنوسي » ان يضعه في مقام الخليفة الثالث - عثمان بن عفان - في نظير ان يقوم « السنوسي » من جهته بشن الحرب على الانجليز في مصر ، ولكن السيد السنوسي رد على مهدي السودان : بأن مقام عثمان لا يناله لا انا ولا انت (١٢٥) .

وهكذا كانت اتجاهات المهديّة السياسية عنف وتطرف في معظم نشاطها ، ومن ثم لا تعجب ان اعتبر المؤرخون المهديّة بأنها ثورة اكثر من

-
- (١٢٢) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٤١ .
(١٢٣) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٧١ .
(١٢٤) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٣٧ .
(١٢٥) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٧٢ .

اعتبارها دعوة ، هذا على الرغم من ان المهدي في جانبها السياسي اتفقت في بعض الامور مع الوهابية والسنوسية كاقامة الدولة الاسلامية ونشر الدعوة ووجود الامامة ...

سادسا : تقييم الدعوات السلفية الثلاث :

على الرغم من تقسيم الدعوات السلفية الثلاث في الدراسة الى جوانب دينية واخرى اجتماعية وثالثة سياسية ، فان لهذه الدعوات رسالة شاملة ، ورغم ما وجد من سلبات علقت بتنفيذ مبادئ دعوة او اكثر منها ، فان اثرها في اليقظة الاسلامية لا يمكن انكاره ، وليس ادل على ذلك من استمرارها حية في نفوس العرب والمسلمين حتى يومنا هذا .

فالدعوة الوهابية وان اهتمها البعض بالشدة في تطبيق مبادئها ، فانها ليست بدعة جديدة ولكن الجديد فيها هو ظهورها في زمن بدا فيه ان كل شيء مخالف لما درج عليه الناس منذ سنوات ، واصبح من عاداتهم يعتبر بدعة مدعاة للاستنكار، واذا كانت الدعوة قد لقيت معارضة، فان ذلك سنة كل جديد على القوم في كل زمان بل وفي كل مكان (١٢٦) . ولم يلجأ الوهابيون الى مقاتلة معارضيههم الا بعد اقامة الحجّة ، وفي ذلك يذكر الامير سعود الكبير الذي فتح الحجاز منذ عام ١٢١٨ هـ الموافق ١٨٠٣ م ، اننا ندعو الناس الى وحدانية الله ونقاتلهم عليه بعدما نقيم عليهم الحجّة من كتاب الله رسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجماع السلف الصالح من الامة (١٢٧) .

والدعوة الوهابية دعوة اصلاحية خالصة غرضها اصلاح الخرق، ونسخ الشبهات وابطال الاوهام ونقض التفاسير المختلفة والتعاليم المتضاربة التي وضعها اربابها في عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبادة الاولياء (١٢٨) ، وان محمد بن عبد الوهاب لم ينظر الى المدينة الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه في اصلاحه الى الحياة المادية :

-
- (١٢٦) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٤٢ .
(١٢٧) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الانار في التراجم والاخبار ، احداث يوم ٢٩ صفر ١٢١٨ هـ ، صورة كتاب الامير سعود الكبير لحجاج بيت الله الحرام .
(١٢٨) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ٢٦٤ .

وانما اتجه الى العقيدة وحدها ، فعنده ان العقيدة والروح هما الاساس وهما القلب ان صلحا صلح كل شيء ، وان فسدا فسد كل شيء (١٢٩) .

ويصور الدكتور طه حسين بأسلوب بليغ دعوة محمد بن عبد الوهاب التي اثارت الانتباه العالمى خلال القرن الثامن عشر الميلادى وما بعده في قوله : ان مبدا الحركة جديد وقديم معا ، انه جديد بالنسبة الى المعاصرين ، ولكنه قديم في حقيقة الامر لانه ليس الا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة الى الاسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله وبين الناس ، هو احياء للاسلام العربى وتطهير له مما اصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب (١٣٠) .

وعلى هذا فلا يمكن اغفال تأثير الدعوة الوهابية على الفكرة العربية التى كانت مغمورة تحت السيطرة التركية على الاقطار العربية ، واذا كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد اهدت بها حركة محمد بن على السنوسى الإصلاحية في ليبيا وحركة محمد احمد المهدي في السودان ، وفكرة الجامعة الاسلامية في مصر طوال القرن التاسع عشر . فان الدعوة الوهابية قد نبهت اذهان العرب بضرورة ايقاظ وعى العروبة واعادة امجادها وتقض السيطرة التركية ، ولعل هذا الاتجاه كان دافعا لكى تلتف القلوب حول آل سعود العرب الخالص : كما كان له تأثير على فكرة الشريف حسين في الحجاز لاقامة دولة عربية كبرى تشمل شبه الجزيرة العربية والعراق وكل بلاد الشام بعيدا عن السيطرة التركية (١٣١) .

وكان نجاح السنوسية مستندا الى الاسلوب الذى اتبعته في تنفيذ مبادئها ، ذلك الاسلوب السلمى الذى بدأ بالمؤاخاة بين القبائل الاسلامية ونشر الدعوة بينها بالتدريج وبالحسنى ، واستخدام ما عرف « بالزوايا السنوسية » كأداة لنشر الدعوة ، تلك الزوايا التى سارع الى انشائها في ارضهم اهل كل قبيلة وسلموا زمام امرهم الى شيخ الزاوية الذى يعينه

(١٢٩) د. احمد امين : زعماء الإصلاح .. ص ١٨ .

(١٣٠) د. طه حسين : الحياة الادبية في جزيرة العرب ، مجلة الهلال

مارس ١٩٣٣ م .

(١٣١) د. رافت الشيع : المرجع السابق ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

صاحب الدعوة فانتقلت بذلك الرئاسة والزعامة من شيخ القبيلة الى شيخ الزاوية السنوسية .

كما ان الزوايا التى انتشرت في انحاء شتى من الوطن العربى والافريقى امتدادا من الحجاز فمصر فبرقة وطرابلس وفزان والجزائر وتونس الى تشاد وموريتانيا والسنغال ، ادت رسالة شاملة تعليمية ودينية واجتماعية وعسكرية . ورغم ان الرسالة الدينية استحوذت على اهتمام الزاوية الاول حين تمثلت تلك الرسالة في التنفيذ العملى لاحكام الاسلام ومبادئه بالحكم الشرعى بين المواطنين والتربية الدينية والخلفية للمريدين والاخوان واعداد الدعاة والمواطنين (١٣٢) . فقد حملت هذه الزوايا رسالتها الشاملة الى الشعوب الوثنية في قلب افريقيا الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى اهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية الى الاسلام طائعة مختارة (١٣٣) .

كما انه بحكم استقرار الزوايا اضطرت كل قبيلة ان تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها ، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة الى ذلك ، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والاقامة بعد ان كانت لا تعرف لذلك سبيلا (١٣٤) . هذا الى جانب تساوى الجميع في الواجبات مع تساويهم في الحقوق ، فكل طالب علم في الزاوية عليه ان يؤدى ما انيط به من عمل مساء يومى الخميس والاثنين - ويوم الجمعة راحة - ويستوى في ذلك الصغير والكبير والفقير والغنى والفقير ، اذ ليس هناك نظام الطبقات المفرق عادة بين صفوف الامة (١٣٥) .

ومبعث نجاح السنوسية كذلك دعوتها الى العمل والانتاج ، ومن المأثور عن « محمد المهدي السنوسي » انه كان يقول للاخوان والمريدين الذين كانوا يطلبون اليه ان يعلمهم الكيمياء : ان هذه تحت سكة المحراث وانها هى كد اليمين وعرق الجبين ، بل كان يعمل مع العاملين في الزراعة والحرف ويقول: ايظن اهل الوريقات والسبيحات - اى العابدين القانتين المنزولين - انهم

-
- (١٣٢) التعليم الدينى في ليبيا ص ١٢ .
(١٣٣) د. محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٥٠ .
(١٣٤) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٢ .
(١٣٥) محمد الطيب الاشهب : السنوسي الكبير ص ٥٠ .

يسبقوننا عند الله ، لا والله ما يسبقوننا (١٣٦) .

كما كان مبعث نجاح السنوسية واثرها هو بعدها عن الصدام مع القوة الاسلامية المسيطرة في العالم العربي واعنى الدولة العثمانية والتهوى للوقوف امام قوات الغزو الاوروبية. ومن هنا صار رجال الزوايا مقاتلين اشداء واجهوا الفرنسيين اول القرن العشرين ، في «واداي» وحول بحيرة تشاد ، كما واجهوا الغزو الايطالى لليبيا عام ١٩١١ م ، اذ كانت مقاومة السنوسيين للايطاليين مقاومة منظمة بحكم تنظيم الزوايا السنوسية . فقد كان لبوادر اليقظة الشعبية التى بذر السنوسي بزواياه وتعاليمها وجهود شيوخها بذرتها الاولى ان هب الشعب الليبى ومنذ الوهلة الاولى للدفاع عن ارضه ضد الغزو الايطالى (١٣٧) . وقد استمر الكفاح بقيادة السنوسيين وقادهم عمر المختار حتى استشهد القائد عام ١٩٣١ م .

واما الدعوة المهدية فقد انشقت بالعمليات العسكرية والخلافات القبلية مما ادى الى انييار دولة المهدية في السودان بسرعة في حين لم يدافع عن المهدية الكثيرين من السودانيين الذين عاشوا في كنفها وتحت سلطتها. ولعل سبب ذلك ان المهدية لم تجد من رجالها فلاسفة يؤصلون افكارها ويشرحون تعاليمها ويكونون صفوفها من انصارها يحملون رسالتها ويتناقلون بها جيلا بعد جيل . كما ان المهدية بعد موت صاحبها عاشت فترة من الخلافات والانقسامات بين القبائل وبين حكومة الخليفة عبد الله التعايشي (١٣٨) .

وكان يمكن للثورة المهدية ان تصبح حركة وطنية ناجحة لولا ما شابها من عنف وبطش ليس فقط بالاوروبيين والأتراك والمصريين بل بالسودانيين انفسهم . ولولا ادعاء المهدي لامور لا تجد قبولا حتى من السودانيين الذين كان معظمهم يدخلون في طاعة المهدية رغبة في مقنم او خوفا من بطش رجالها . ولولا عجز المهدية عن صد تيسار الاطماع الاستعمارية الاوروبية الزاحف لاقتطاع اجزاء من السودان وملحقاته . ففى عهد الخليفة عبد الله التعايشي انتزعت املاك مصر فى الصومال وساحل البحر الاحمر وفي السودان لتلتهمها

(١٣٦) د. محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٩ .

(١٣٧) محمد مصطفى : العدوان او الحرب بين ايطاليا وتركيا في ليبيا

ص ١٦١ .

(١٣٨) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٤٠ .

القوى الأوروبية المتسابقة ، أى ان المهديين عجزوا كل العجز عن الاحتفاظ بتلك الامبراطورية التى أسسها المصريون خلال ستين عاما في شرق ووسط أفريقيا (١٣٩) .

وهكذا كان اثر المهديّة في العالم العربى والاسلامى ضئيلا بالمقارنة بتأثيرات الوهابية والسنوسية رغم اعتبارنا لها على انها حركة سلفية اصلاحية وطنية اسلامية معا (١٤٠) .

(١٣٩) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٤ .
(١٤٠) د. رافت الشيخ : مصر والسودان في العلاقات الدولية ص ١٣٧ وما بعدها .

الجامعة الاسلامية

كانت فكرة الجامعة الاسلامية مظهرا آخر لليقظة الاسلامية التى اخذت دورها بين الشعوب العربية والاسلامية خلال القرن التاسع عشر، ولكى نستجلى هذه الظاهرة وضوحا علينا ان نلقى الضوء على الظروف التى ادت الى ظهورها ، وعلى الشخصيات التى ارتبطت بها ، وعن الفكرة نفسها ابعادها واهدافها ونتائج الدعوة اليها .

أولا : ظروف العالم الاسلامى :

يمكن القول ان العالم الاسلامى تعرض منذ اوائل القرن الحادى عشر الميلادى لعوامل تخلف وفوضى نتيجة الغزو الصليبي والوجود التركى في آسيا الصغرى ، ثم جاءت الغزوة المغولية عام ١٢٥٨ م على الجناح الشرقى للعالم الاسلامى - ايران فالعراق - لتزيد من تخلف المسلمين وتضرب الحضارة العربية الاسلامية بضربة قاصمة غير تلك الضربة التى لحقت بالعرب والمسلمين بخسارتهم للاندلس لصالح الكاثوليك الاسبان .

وكان سقوط العالم العربى تحت الحكم العثمانى منذ اوائل القرن السادس عشر الميلادى عاملا آخر لتدهور احوال المسلمين بسبب ما اتصف به الحكم العثمانى من سلبيات اهمها العزلة التى فرضت على العالم العربى والاسلامى . في الوقت الذى لم تكن للاتراك حضارة يفيدون بها العرب وفي الوقت الذى اخذت اوروبا فيه تنهض وتسير في طريق التقدم والعمران، الى جانب الاستبداد والظلم التركى بالعرب والمسلمين المحكومين الذين تأخروا في كل نواحي الحياة حتى فقدوا قوتهم وباتوا لاقبل لهم بملاقة الغرب في اى ميدان (١٤١) .

وزاد الطين بلة ان القرن الثامن عشر الميلادى شهد تدهورا اكبر في احوال العرب والمسلمين بظهور ما عرف بالحركات الانفصالية او الاستقلالية في الولايات العربية الخاضعة للحكم العثمانى، تلك الحركات التى كانت في جملتها مقامرات شخصية لافراد من الاتراك او المعاليك المغامرين الذين كان هدفهم

(١٤١) محمود ابو رية : جمال الدين الافغانى ص ٦ .

ارتقاء كراسي الحكم والحصول على مغامرات كبيرة والضحية في كل الاحوال كانت الشعوب العربية والاسلامية في الوقت الذي ضعفت فيه الدولة العثمانية فلم تقو على السيطرة على ممتلكاتها وخضعت لما فرض عليها مقتنعة بما يلقيه اليها هؤلاء المفاكرون من فتات من الاموال التي يجمعونها قسرا وبشراسة من الرعاية العرب والمسلمين .

وفي نفس القرن - الثامن عشر - وفي القرن التالي (التاسع عشر) اخذ الاستعمار الاوربي يحقق وجوده بقوة في الارض الاسلامية حيث شهدت الهند المطامع البريطانية التي انتهت بسيطرة كاملة لبريطانيا على الهند ، ثم على عدن ثم على مصر والسودان واقطار الخليج العربي ، بينما عبرت روسيا القوقاز وبسطت سيطرتها على اواسط آسيا ، في الوقت الذي وجد فيه الاستعمار الفرنسي طريقه الى اقطار الشمال الافريقي العربية الاسلامية . وقاسى المسلمون تحت الحكم الاستعماري الاوربي في حياتهم الاقتصادية والدينية والعلمية بما اثر في قوتهم وفي حضارتهم التي كانت مزدهرة يوما ما .

وخير تصوير لحال المسلمين في القرن التاسع عشر ما ذكره الكاتب الامريكي « لوثررب ستودارد » في كتابه « حاضري العالم الاسلامي » عند حديثه عن اليقظة الاسلامية في القرن التاسع عشر (١٤٢) . اذ يقول : كان العالم الاسلامي في القرن الثامن عشر قد بلغ من التضعف اعظم مبلغ . وانتشر فيه فساد الاخلاق والآداب ، ونال ما كان باقيا من آثار التهذيب العربي ، واستغرقت الامم الاسلامية في اتباع الاهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة في الناس ، وساد الجهل ، وانطقت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى في العالم الاسلامي - في ذلك العهد - سوى المستبدين الفاشمين ، كسلطان تركيا وواخير ملوك المغول في الهند يحكمون حكما واهنا .

وفي حياة المسلمين الدينية والاجتماعية لعب رجال الدين المستبدين وغير الامناء دورا سيئا ، حيث كثر عدد الادعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان الى مكان يحملون في اعناقهم التماائم والتعاويد والسبحات ويوهمون الناس

(١٤٢) لوثررب ستودارد : المرجع السابق ص ٢٥٩ .

بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم في الحج الى قبور الالياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن، فصاروا يشربون الخمر ، وانتشرت الرذائل ، فقلت الايدى وقعدت عن طلب الرزق وكاد العزم يتلاشي في نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بوارا شديدا ، واهملت الزراعة ايما اهمال (١٤٣) .

وكانت مصر - منارة العالم الاسلامى آنذاك بوجود الجامع الازهر وعلمائه ومؤسسات التعليم الحديث التى اوجدها محمد على وحفيده اسماعيل - تعيش هى الاخرى عصرا من الفوضى وسوء الحكم ، فلم يكن المصريون آنذاك يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الاعلى ومن ينيبه عنه في تدبير امورهم ، يتصرف فيها بحسب ارادته ، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى امانته وعدله ، او خيانتة وظلمه ، ولا يرى احد منهم لنفسه رايما يحق له ان يبدية في ادارة بلاده ، او ارادة يتقدم بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صالحا لامتة ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة ، وتضر به عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية او اوروبية (١٤٤) .

وكانت احوال الشرق الاسلامى عامة تسير من سيء الى اسوا ، فالجهل والخرافات والايهام والعادات والبدع انتشرت بين المسلمين ، كما انتشر بينهم داء الفرقة والخلاف فلا رابطة اجتماعية تجمعهم لتحقيق الخير لهم فأخذهم الفقر في كل اقطارهم على غنى بلادهم واتساعها وخصبها ولكنهم بجهلهم لا يعملون على الانتفاع، وشملهم الدل والهوان على قوتهم وكثرة عددهم وتركوا بلادهم نهبا مقسما بين الاروبيين ، ورضوا بأن يكونوا له خداما طائعين (١٤٥) .

ويمكن ان نضيف ما اصاب المسلمين من اسراف وتبذير في الانفاق على افراحهم وامواتهم حتى يخسرون اموالهم وممتلكاتهم التى يأخذها الاجانب - الى جانب داء التواكل الذى كبل عقولهم عن التفكير وايديهم

(١٤٣) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ٨ .

(١٤٤) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ح ١ ص ٣٥ .

(١٤٥) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١١ .

وارجلهم عن العمل والسعى واسلموا امرهم للاجنبى، وصاروا يتمسكون بأمثال مشبطة للهمم مؤدية للشلل الاجتماعى مثل قولهم « سيبها على الله » و « لا تفكر ولها مدبر » و « اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب » و « مراد الخالق من الخلق ما هم عليه » و « لهم - اى للاجانب - الدنيا ولنا الآخرة » و « اذا اعيتكم الامور فعليكم بأصحاب القبور » .

كما يمكن أن نضيف أيضا توضيحا آخر لاحوال المسلمين سوء الحكم وقسوة الحكام الذين ساهموا في سوء احوال المسلمين بابتزاز اموالهم بكل قسوة ، ويفرضون عليهم الجهل والاوهام ويعطون للاروبيين امتيازات اقتصادية ودينية وقضائية في بلاد المسلمين لا يتمتع بها المسلمون انفسهم ، ومن ثم صارت حياة المسلمين نهبا للحكام الاتراك وللاجانب المحتمين بالامتيازات ، فكانت تلك الايام وبالا على الحكومة والاهالى جميعا ، وكانت سعدا وربيعا للتجار وارباب البنوك - المصارف - الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين ابناء البلاد انتشار الذئب بين الاغنام ، فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة واضطروهم العجز لبيع املاكهم ورمي عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ منها بالكلية واحاط بهم الفقر وصاروا في اسوأ حال (١٤٧) .

كانت تلك احوال المسلمين التى أثارت مصلحا مثل جمال الدين الافغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده المصرى للتقدم بفكرة الجامعة الاسلامية لعلاج تلك الاحوال التى كان اخطر ما فيها الاعتقاد الذى ساد بين المسلمين بوجود تعارض بين الاسلام كدين وعقيدة وبين التقدم المادى الحديث ، والنظر الى الحضارة الاوروبية الحديثة نظرة شك وخوف مما يدفعهم الى الابتعاد عن الاخذ بأسبابها ، وساعدهم على ذلك وجود الحكم التركى الذى عمل على ابعاد المسلمين عن الاخذ بأسباب التقدم الحضارى الاوروبى ، وفي نفس الوقت اعطاء الاجانب امتيازات متنوعة في الاقطار الاسلامية حيث يمارسون الاستغلال والاحتكار ويكرسون في المسلمين تخلفهم الحضارى .

ثانيا : الشخصيات التى ارتبطت بفكرة الجامعة الاسلامية :

ساد اعتقاد بأن حركة الجامعة الاسلامية كظاهرة من ظواهر اليقظة الاسلامية

(١٤٦) المرجع نفسه : ص ١٢ .

(١٤٧) رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٧ .

في القرن التاسع عشر ارتبطت بشخصية السيد جمال الدين الافغانى وانها ماتت بموته ، والحقيقة غير ذلك اذ ان فكرة الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى وجدت عند السيد جمال الدين وهو في بلاده افغانستان كما وجدت عند تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده في مصر ، وعند السيد محمد رشيد رضا الحجازى الاصل بعد اتصاله بالشيخ محمد عبده . ثم ان السلطان عبد الحميد الثانى سلطان الامبراطورية العثمانية ارتبط اسمه بالجامعة الاسلامية حين اراد استغلالها لتدعيم سلطانه وفرض نفوذه على كل المسلمين حتى على اولئك الذين لم يخضعوا من قبل لسلطان الدولة العثمانية .

ولهذا كان علينا ونحن ندرس ظاهرة الجامعة الاسلامية ان نعرف مكونات كل شخصية من الشخصيات التى ارتبطت بها والجهود التى بذلتها كل شخصية في سبيل تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية .

أ - السيد جمال الدين :

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتى الحسينى الافغانى ، ولد « بأسعد آباد » من أعمال « كابل » في عام ١٢٥٤ هـ الموافق لعام ١٨٣٨ م (١٤٨) . من اسرة تنسب الى آل البيت حيث ينتهى نسبه الى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهذا هو السبب في تسميته بالسيد ، ولعشيرته منزلة عالية في قلوب الافغانين يجعلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف (١٤٩) .

وبهذا نشأ محمد جمال الدين في بيت شريف وبيت علم ودين ، واستزاد علما من اساتذة مدارس « كابل » القديمة بأخذه علوم اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفية على أيديهم ، الى جانب علوم الطب والفنون الرياضية ، وأضاف الى دراسته لهذه العلوم استفادته

(١٤٨) عبد المتعال الصعیدی : المجددون في الاسلام ص ٤٩٠ .

(١٤٩) محمود ابورية : المرجع السابق ص ١٥ .

ويذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن والد جمال الدين اسمه « صفدر » وهى كلمة فارسية من القاب الامام على بن ابى طالب مركبة من كلمة (صف) العربية (در) من فعل دريدان الفارسي بمعنى افترس أو اقتحم (كتاب العروة الوثقى ص ١٧) .

من دراسة أحوال الشعوب الإسلامية بتنقله بين أفغانستان والهند والحجاز ومصر وتركيا ، وتمرسه في الأعمال الادارية والسياسية بارتباطه بالامير الافغانى « دوست محمد خان » والامير « محمد اعظم خان » ، والخدوى اسماعيل بمصر لمدة ثمان سنوات من ١٨٧١ الى ١٨٧٩ ، وحكام الدولة العثمانية بالإستانة وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد الثانى .

وكانت شخصية محمد جمال الدين بما تميزت به من أسلوب عملى واخلاص علمى هاديه في كل قطر اسلامى ينزل فيه ، ففى مكة أنشأ جمعية أطلق عليها « جمعية أم القرى » عام ١٨٥٧ م وأصدر لها مجلة تنطق باسمها عرفت باسم « أم القرى » وتدافع عن أهداف الجمعية المتمثلة في وحدة المسلمين لمواجهة الاخطار المحيطة بهم (١٥٠) . وفي الهند وأفغانستان أثار المسلمين ضد الحكم البريطانى وسياسته الاستبدادية والاستغلالية ، وفي استانبول استقبل هناك عام ١٨٧٠ استقبالا وديا من قبل الحكومة والايوساط العلمية ، هذه الاوساط التى استطاع ان يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقى من دروس ومحاضرات في الجامعة المنشأة حديثا (١٥١) .

وفي مصر عاش ثمانى سنوات في رعاية وترحيب من الخديوى اسماعيل الذى شجعه على المضي في دعوته الإصلاحية لان ذلك يوافق غرض اسماعيل في التصدى للنفوذ الاجنبى الذى يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى ، وعلى هذا فقد نجح جمال الدين في تشكيل حزب من انصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى (١٥٢) ، وكان اظهر تلاميذه الشيخ محمد عبده ، وعندما نجحت إنجلترا في حمل السلطان العثمانى على عزل الخديوى اسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه عام ١٨٧٩ م غضب توفيق من دعوة السيد محمد جمال الدين الى الشورى لانه اعتقد ان ذلك يؤدى الى الحكم الجمهورى ، وهيجت تعاليمه الفلسفية شيوخ الازهر الجامدين فرموه بالفسوق ، وكانت تعاليم السيد قد أوغرت عليه كذلك قنصل إنجلترا العام (١٥٣) ، وانتهى الامر بنفى السيد جمال الدين من مصر الى الهند في عام ١٨٧٩ م .

-
- (١٥٠) عبد المتعال الصعدي : المرجع السابق ص ٤٩١ .
 - (١٥١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦١٧ .
 - (١٥٢) عبد المتعال الصعدي : المرجع السابق ص ٤٩٢ .
 - (١٥٣) محمود أبورية : المرجع السابق ص ١٨ .

ترك جمال الدين مصر بعد أن استطاع أن يثبت في نفوس الشبان المصريين الأمل في التحرر من السيادة الأوروبية إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه ديناً أكثر أمعانا في مضمار الرقى (١٥٤) ، وقد جاءت تأثيرات جمال الدين الأعظم على طلاب الجامع الأزهر أثناء إقامته بمصر في الفترة من مارس ١٨٧١ م إلى شهر سبتمبر ١٨٧٩ م (١٥٥) .

ومن الهند انتقل السيد جمال الدين إلى أوروبا حيث أقام في باريس منذ عام ١٨٨٣ وهناك التقى بالشيخ محمد عبده حيث أصدر جريدة «العروة الوثقى» التي نظمت بأفكارهما الداعية إلى محاربة تدخل الدول الأوروبية في شؤون الأمة الإسلامية ، ومن باريس انتقل إلى لندن عام ١٨٨٦ م ، ثم عاد إليها مرة أخرى في عام ١٨٩٢ م واشترك في تأسيس مجلة شهرية سميت «أخبار الخافقين» التي كانت تصدر باللغتين العربية والانجليزية (١٥٦) .

وانتقل السيد جمال الدين من فرنسا عام ١٨٨٦ إلى إيران ثم زار روسيا ، وقد بقي في إيران حتى اضطر لمغادرتها بسبب هجومه على شركة الدخان الإنجليزية في إيران ، فسافر إلى أوروبا حتى إذا كان عام ١٨٩٢ استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الاستانة حيث بقي بها لمدة خمس سنوات وافته المنية بعدها في ٩ مارس عام ١٨٩٧ ، وقد ذكر أنه مات مسموماً .

كان هذا هو السيد محمد جمال الدين الذي نذر نفسه للدفاع عن حقوق الشعوب الإسلامية في مواجهة القوى الاستبدادية المحلية والقوى الاستعمارية الأجنبية ، وتلك كانت صفاته التي جعلت الجميع يعرفونه باسم «حكيم الشرق» وصارت هذه الصفة تتردد في كتب الأدب العربي (١٥٧) . ذلك أنه كان يدعو إلى إصلاح أحوال المسلمين في الدنيا

(١٥٤) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ٦١٨ .

Holt, P.M. : Egypt and the Fertile Crescent, P. 212. (١٥٥)

(١٥٦) محمود أبو رية : المرجع السابق ص ١٩ .

Kedourie, E. : Afghani and Abduh, P. 1. (١٥٧)

والدين ، ويقصد به جميع المسلمين في كل الاقطار ، وقد تأثر بدعوته هذه بعض طلاب الاصلاح في مصر وفارس والدولة العثمانية (١٥٨)، وكان يتصور عودة الشعوب الاسلامية للعيش في ظل حكومة اسلامية واحدة تتخلص من تأثيرات وتدخلات الاجانب السيئة .

ب - الشيخ محمد عبده :

هو محمد عبده خير الدين المصرى المولود بقرية محلة نصر مركز شبراخيت بالبحيرة عام ١٨٤٥ م ، والذي تعلم كما تعلم أبناء مصر آنذاك في القرى حيث دخل الكتاب ، ثم انتقل الى الجامع الاحمدى بطنطا فالجامع الازهر بالقاهرة حيث تعلم على يد شيوخ الجامعين وعلى طريقتهم في التعليم ، وان كان قد وقف على احوال هؤلاء الشيوخ الذين يعيشون في عزلة عن العالم فلا يشعرون بما اصاب الاسلام والمسلمين ، ولا يهتمهم الا انفسهم داخل الازهر ، وبقوا على الجمود في العلوم القديمة (١٥٩) .

وقد استفاد محمد عبده من افكار السيد جمال الدين الافغانى فارتبط به وبنى شخصيته ليتم مع جمال الدين الرسالة الاصلاحية للمسلمين التى يعمل من أجلها ، ومن ثم تعاون الرجلان خلال فترة وجود الافغانى في مصر وعندما رحل الافغانى من مصر استمر محمد عبده يدعو الى الاصلاح حتى نفاه الخديوى توفيق الى لبنان ، ومن هناك ذهب الى باريس والتقى بالافغانى واصدرا هناك مجلة العروة الوثقى الناطقة بلسان جمعية العروة الوثقى ، ثم عاد الى مصر بعد ان عفا عنه الخديوى توفيق .

ومن الثابت ان الافغانى استفاد من بلاغة وفصاحة الشيخ محمد عبده في الترويج للافكار الاصلاحية التى شارك الرجلان في اظهارها ، وبذلك

(١٥٨) عبد المتعال الصعدي : المرجع السابق ص ٤٩٥ .

ويضيف كتاب العروة الوثقى ان السيد جمال الدين لم يتعلق ببلد من البلاد على انه وطن ، ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى في مذهبه الاجتماعى . الشيخ مصطفى عبد الرزاق ص ٢٨ .

(١٥٩) المرجع السابق ص ٥٣١

ويضيف الشيخ مصطفى عبد الرزاق انه نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه ان الشيوخ ينقمون عليه نزاعه الفكرية المتأثرة بمذهب استاذه الافغانى . العروة الوثقى ص ٣٢ .

استحق الشيخ محمد عبده اسم « الاستاذ الامام » الذى اطلق عليه (١٦٠). ولا يقلل من قيمة الاستاذ الامام اضطراره الى قصر اصلاحه على الازهر والاقواف الاسلامية والمحاكم الشرعية التى تولى الاشراف عليها في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ، حيث كان الاستاذ الامام يعتقد انه لتجنب الصدام مع الانجليز المسيطرين بقوات احتلالهم على مقدرات الامور في مصر فان اصلاح هذه النواحي يؤدى الى نهضة دينية واجتماعية تصلح بها نفوس الناس واذا صلحت نفوس الناس تمسكوا بحقهم في تحرير بلادهم من السيطرة الانجليزية .

ورغم ان الاستاذ الامام حرص على اصلاح الدينى والاجتماعى والثقافى وتجنب الخوض في الاصلاح السياسى ، الا انه كان شديد الحرص على تحقيق برامج الاصلاحية في هذه المجالات وقد انتج هذا الحرص حربا لا هوادة فيها من رجال الدين الجامدين الذين كان يحركهم الخديوى عباس حلمى الثانى . وقد اثرت هذه الحرب في مجهودات الاستاذ الامام تأثيرا كبيرا بل واثرت على حالته الصحية فعاجلته المنية عام ١٩٠٥ م .

ج - محمد رشيد رضا :

يعتبر السيد / محمد رشيد رضا حامل افكار الافغانى ومحمد عبده

Kedourie, E. Ibid, P. 1.

(١٦٠)

والسبب في تسميته بالاستاذ الامام ان دعوته الاصلاحية تقوم على امور ثلاثة هي :

١ - تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع لسلطان غير سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الاديان .

٢ - اعتبار الدين صديقا للعلم لا موضع لتصادمهما اذ لكل منهما وظيفة يؤديها ، وهما حاجتان من حاجات البشر لا تغنى احدهما عن الاخرى .

٣ - فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى منابعها الاولى .

كما كان الشيخ محمد عبده محبوبا معظما معترفا له بمقام الامامة الذى لا يساميه مقام بين الطوائف الراقية من المصريين وبين طوائف الاجانب في مصر . العروة الوثقى ص ٣٦ - ٣٧ .

الاصلاحية باعتباره تتلمذ عليها واتصل بالشيخ محمد عبده ولازمه حوالى سبع سنوات في مصر ، ورشيد رضا لبنانى المولد حيث ولد بقرية قرب طرابلس الشام تعلم فيها القرآن والخط وقواعد الحساب ثم دخل المدرسة الرشدية (١٦١) وهى مدرسة « ابتدائية » كان التعليم فيها باللغة التركية، ودخل عدة مدارس دينية وأخذ بشيء من التصوف فبعد عن الوظائف الحكومية (١٦٢) .

وكان محمد رشيد رضا يتابع الحركة الاصلاحية التى يقودها الافغانى ومحمد عبده ويقرأ كل ما يصدر عنهما خاصة في مجلة «العروة الوثقى»، والتقى بالامام محمد عبده في طرابلس الشام مرتين . ونحن عرفنا أن الاستاذ الامام كان منفيا في لبنان لفترة ما كما ذكرنا ، ثم رحل رشيد رضا الى مصر عام ١٨٩٨ م ولازم الاستاذ الامام وأصدر مجلة « المنار » التى حلت من حيث رسالتها محل مجلة العروة الوثقى ، وبعد وفاة الاستاذ الامام استمر رشيد رضا في حمل الامانة وان كان قد داهن السياسة كما فعل عندما ايد الملك احمد فؤاد في اتخاذ لقب خليفة بعد الفاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك ، كما انه رغم أخذه بمذهب السلف الا انه كان يخالف بعض ائمة هذا المذهب انطلاقا من تأثره بالصوفية وقد ظلت مجلة المنار تنطق بالدعوة الاصلاحية حتى وفاة السيد رشيد رضا عام ١٩٣٥ .

ثالثا - فكرة الجامعة الاسلامية :

جاءت فكرة الجامعة الاسلامية حصيلة الظروف التى عاشها العالم الاسلامى وحصيلة تفاعل المصلحين - جمال الدين الافغانى ومحمد عبده - مع تلك الظروف ومن ثم الوصول الى افكار لمعالجة تلك الظروف ، ومن هذا يمكن القول ان جوهر هذه الفكرة يقوم على الاخذ بيد الشعوب الاسلامية - وليست الشعوب العربية فقط بل كل الشعوب الاسلامية والخاضعة للاستعمار الاوروبى في آسيا وافريقيا بصفة خاصة - لتحقيق الحرية اى التحرر

(١٦١) كان السلم التعليمى العثمانى يبدأ بما عرف بمكاتب المبتدئان، ثم المكاتب - أى المدارس - الرشدية ومعناها المدارس التى يدخلها من رشد من الابناء اى الصبيان وهى توازى المدارس الاعدادية حاليا ثم المكاتب الاعدادية وهى توازى المدارس الثانوية حاليا ثم المكاتب العالية وهى توازى الكليات الجامعية حاليا .

(١٦٢) عبد المتعال الصعدي : المرجع السابق ص ٥٣٩ .

من استبداد الحكام وتحرر البلاد من السيطرة الأوروبية. وتحقيق التقدم أى أبعاد شبح الجمود الذى ران على أفكار المسلمين لكى يصلوا إلى ما وصلت إليه الشعوب الأوروبية في ميادين الحياة المختلفة ، والاعتماد في ذلك على التعليم بمؤسساته التى تأخذ بأسباب العلم الحديث وتنفض عن نفسها الجمود في الفكر وفي الأسلوب ، وأظهر مرونة الدين الإسلامى أى أن الإسلام دين كل زمان وكل مكان وأنه لا يتعارض مع التقدم العلمى الحديث بل يؤكده .

وإذا كانت الفكرة تقوم أصلا على تحرر الشعوب الإسلامية لتجديد روحها المعنوية مسندة إلى عزة الإسلام الأولى وتراثه التليد . فإن الفكرة أشارت إلى أن ذلك يمكن تحقيقه بانضواء جميع هذه الشعوب تحت حكم خليفة واحد تتجمع في يديه السلطتين الدينية والسياسية ، وبذلك يعود للمسلمين ما كان لهم من قوة ومنعة زمن الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين فالعباسيين ، ولكن بشرط أن يبنى الخليفة الواحد حكما حديثا يأخذ بأسباب الحضارة الغربية المادية التى لا تتعارض مع الدين الإسلامى الحنيف (١٦٣) .

وصادت فكرة الجامعة الإسلامية هوى في نفس السلطان عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية الذى تقلد السلطنة عام ١٨٧٦ ورأى أن السلاطين الذين سبقوه فقدوا مكانتهم الدينية نتيجة لتفكك العالم الإسلامى واستيلاء دول الاستعمار الأوروبى على مناطق تسكنها شعوب إسلامية منها مناطق كانت من ممتلكات الدولة العثمانية كمصر والسودان التى احتلتها القوات الإنجليزية ، والجزائر وتونس التى صارت تحت النفوذ والسيطرة الفرنسيتين ، إلى جانب سيطرة إنجلترا على الهند وروسيا على وسط آسيا ، وهذه المناطق خرجت عن أن تكون خاضعة لسلطة الخليفة ، ومن ثم حاول عبد الحميد أن يجعل للسلطان سلطة مطلقة أكثر مما كانت متاحة للسلاطين السابقين ، تكون مؤيدة بفكرة الخلافة الإسلامية (١٦٤) .

(١٦٣) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص .
ويحدد جمال الدين فكرته بقوله : لقد نظرت إلى الشرق وأهله فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحقق منهم ، العروة الوثقى ص ١٣ .

Holt, P.M. : Op. Cit., P. 172.

(١٦٤)

ورغم أن فكرة الجامعة الإسلامية عند الافغانى ومحمد عبده لم تكن بالضرورة لتحقيق في ظل الخلافة العثمانية ، فان السلطان عبد الحميد استخدم الفكرة من أجل تقوية مركزه كسلطان للامبراطورية العثمانية يتمتع بمكانة خاصة في قلوب رعاياه المسلمين باعتباره خليفته وظل الله على الارض وحامى حمى الحرمين الشريفين ، فأحاط نفسه بالعلماء واستخدم الوعاظ للدعاية لشخصه كما أبعد عن مجالسه وقصوره كل ما لا يتفق مع تعاليم الاسلام ، واستخدم شريف مكة نفسه في الدعاية له ، خاصة وأنه أظهر الكرم في الانفاق على المؤسسات الإسلامية داخل ولايات الدولة وخارجها حيث اعتقد بتحسين مركز الامبراطورية العثمانية بين الشعوب الإسلامية الخاضعة للحكم الانجليزى والفرنسي والروسي ، فينال هو شخصيا رئاسة كل مسلمى العالم الإسلامى .

وكان يمكن لفكرة الجامعة الإسلامية أن تجد قبولا وصدى أوسع وتنتشر بين الشعوب الإسلامية لو لم يتسم حكم السلطان عبد الحميد بالاستبداد مما جعل المعارضة لمشروعاته تتسع لتشمل الى جانب الاتراك العرب والفرس والهنود ، بل وغير المسلمين من أهل الولايات العثمانية ، هذا الى جانب الدول الأوروبية التي أخذت تستغل أخطاء السلطان عبد الحميد في ضرب أفكاره ومنعها من التطبيق بآثاره العار على العرب ضد الاتراك، وكشف ادعاءات عبد الحميد الإصلاحية بأظهار استبداده وكبته للحريات والفائه للإصلاحات الدستورية وإبعاد الشخصيات المصلحة من على مسرح السياسة العثمانية بل والإسلامية .

الطرق الصوفية

يمكن ارجاع التصوف الاسلامى الى القرن الثالث الهجرى ، كما يمكن ملاحظة الاثر اليونانى والمسيحى في سلوك المتصوفين . وقد اختلف الفقهاء في معنى الصوفية فمن قائل انها كلمة يونانية الاصل ترجع الى كلمة Sophos . ومن قائل انها اطلقت على الزاهدين الذين كانوا يلبسون الصوف وهى تدل عندهم على شخص اختار ان يلبس أبسط انواع الثياب ويتجنب كل نوع من الرفاهية او العناية بالمظهر ويدللون على هذا الراى بأن الفرس يستعملون في مقابل هذه الكلمة لفظ « باسمينا - بوش » Pashmina Push (١٦٥) .

ومن قائل ان اصل الكلمة مشتق من الصفاء وبهذا يجعلون معناها قريبا الى معنى كلمة المتطهر Puritan التى شاع استعمالها في المسيحية ، ومن قائل انها تنسب الى صفة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، ومن قائل انها اطلقت في الاصل على من يجلسون في الصف الاول من المسلمين ، ومن قائل بانها ترجع الى تجنب صفو الدنيا ، ويدللون على ذلك بحديث شريف عن ابي حنيفة انه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر ، فالمرتبة اليوم تحفة لكل مسلم (١٦٦) .

والراى عندى ان الكلمة ذات اصل يونانى خاصة واننا ندرک التأثيرات اليونانية على الحضارة العربية الاسلامية التى ازدهرت في القرن الثالث الهجرى وهو القرن الذى بدأت تظهر فيه فكرة التصوف ، وعلى أية حال فالتصوف ظاهرة اسلامية تقوم طريقة المتصوفين فيها - كما يذكر الامام الغزالى - على العلم والعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحليته بذكر الله . وان اخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالدوق والحال وتبدل الصفات (١٦٧) .

-
- (١٦٥) ديلاسي اوليرى : الفكر العربى .. ص ١٩٠ .
(١٦٦) د . محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام .. ص ٢٧٨ .
(١٦٧) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٢٣ - ١٢٤ .

ولا يمكن اعتبار التصوف بدعا يستنكر ، لانه انبثق ، كغيره من مناهج المعرفة في الاسلام ، من روح القرآن وجوهر رسالته ، وبدأ كما بدأت تلك المناهج مع الاسلام ، ثم نما وتطور ومشى مع خطو الحياة وسنة الله ، فأخذ المتصوفون يكونون لهم فلسفة في الاخلاق وفي السلوك وفي العبادة ، وأخذوا يجردون الاسباب من قوتها ويرجعون كل شيء الى الله سبحانه ، فأكسبهم ذلك عزة خلقية وسعادة روحية قوامها الرضا بقضاء الله وقدره ، واليقين بأن لا سلطان لقوة من قوى الارض على مصائرهم وحياتهم (١٦٨) .

واذا كان التصوف قد بدأ الظهور في المشرق الاسلامي — وبخاصة في بلاد فارس — فان الهجمة الصليبية على بلاد الشام — في اواخر القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي — قد دفعت بالمسلمين الى التساؤل : كيف جرؤ اعداء المسلمين على قتل الانفس المسلمة واستباحة اعراضها وأموالها وممتلكاتها ، الا كونه غضب من الله على المسلمين لا يمكن رفعه الا بالرجوع الى الله وتنفيذ أوامره وتجنب ما نهى عنه .

ونتيجة لما حدث في المشرق الاسلامي اخذ تيار التصوف يشتد ويقوى في العالم الاسلامي مشرقه ومغربيه ، على انه يبدو ان تيار التصوف اشتد في المغرب في ذلك الدور بصورة اقوى وأسرع مما كان عليه في المشرق ، وربما كان السبب في ذلك هو قرب المغرب العربي من مركز الهجوم الاوروبي على بلاد المسلمين ، مما جعل اهل المغرب اكثر احساسا بالخطر وبالتالي اكثر حماسه ورغبة في التوبة والاستعداد الروحي والمادي (١٦٩) ، وان اضطهرهم هذا الخطر الذي لم يستطيعوا مدافعتة ان يولوا وجوههم شطر المشرق العربي وبصفة خاصة في مصر وذلك منذ القرن السابع الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي .

وقد يبدو من الصوفية انها مذهب منظم لانه يشار الى « مراتب » الصوفية المختلفة ، وهي في الحقيقة تدل على مقامات متعاقبة في طريق التسامي الشخصي . ولقد كان من عادة المبتدئ السالك سبيل الله ان يضع نفسه تحت ارشاد قائد روحي ذي تجربة يعمل معلما له ويعرف بالشيخ او

(١٦٨) ظه عبد الباقي سرور : العلاج . . ص ٢٦ .

(١٦٩) د . سعيد عاشور : السيد أحمد البدوي ص ٣١ .

المُرشد . وتتطلب هذه التلمذة طاعة عمياء مطلقة للمعلم . وقد نتج عن تجميع المريدين حول معلم معروف أن رأينا نشأة طوائف الدراويش - المتصوفين - في صورة جماعات من الناس يسعون كما يسعى غيرهم في طلب الرزق ولكنهم يجتمعون بين وقت وآخر لبعض العبادات أو الارشادات الدينية . ويجتمعون أحيانا بوصفهم جماعات دائمة تعيش في طاعة تامة تحت ارشاد شيخ (١٧٠) .

وتدور طريقة الصوفيين في السعى وراء الحقيقة للوصول إليها حول محاسبة النفس على الأفعال والتروك وآداب خاصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقى من ذوق الى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم . وهذه الاصطلاحات خاصة بمراتبهم بعضها معلوم وذائع على اللسان وفي مجالسهم ، وبعضها يعد من الاسرار المكتومة (١٧١) .

ويثور سؤال . . اذا كان هدف المتصوفين واحد وهو الوصول الى الله فلماذا لم يكن طريقهم واحد ، بمعنى لماذا تعددت الاساليب لتحقيق هذا الهدف ؟ لا شك ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب فهما لامتداد العالم الاسلامي والمشكلات التي واجهته وصعوبة الاتصال بين الناس في ذلك الزمان ومن ثم صار لكل شيخ طريق او طريقة كما يقول المثل العربي ، ومن ثم تعددت الطرق وتفرعت ، فبعد أن كانت الصوفية تنتسب الى اربعة من كبار الاولياء هم : عبد القادر الجيلاني واحمد الرفاعي واحمد البدوي وابراهيم الدسوقي (١٧٢) ، وعرفت طرائقهم بأسماء : القادرية والرفاعية والاحمدية والبرهامية ، انقسمت هذه الطرق الى طوائف فرعية ، فعلى سبيل المثال انقسمت الطريقة الاحمدية الخاصة باتباع السيد احمد البدوي الى ست عشرة طريقة (١٧٣) .

ورغم هذا التعدد في الطرق فان التصوف معناه تجنب الرفاهية بدافع من الزهد واختيار البساطة في اللباس من جانب الذين يسمون بهذا

(١٧٠) ديلاسي أوليري : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(١٧١) د. محمد لطفي جمعة : المرجع السابق ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(١٧٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ح ٣ ص ١٣٠ .

(١٧٣) د. سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٨٩

الاسم (١٧٤) ، وان الصوفى له ثلاث صفات هي :

- ١ - التمسك بالفقر والافتقار .
- ٢ - التحقق بالبدل والايثار .
- ٣ - ترك التعرض والاختيار .

وقد اجمع العلماء الصوفية في تعريف الصوفى على انه رجل احب الله فآثره وكره الدنيا فزهد فيها (١٧٥) .

ولان الطرق الصوفية قد عرفت بأسماء اصحابها فقد سمعنا عن رجال سجلهم التاريخ كأصحاب طرق صوفية مثل - الى جانب من ذكرنا - الشيخ احمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية وابو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه ابو العباس المرسى ، وابو القاسم القبارى وكلهم من المغرب وفدوا الى مصر ، هذا الى جانب اصحاب طرق اقل شهرة من امثال الشيخ عبد السلام الاسمر بمدينة « زليتن » في ليبيا، والشيخ الدوكالى بقرية « مسلاتة » بليبيا كذلك وغيرهم ممن اتخذوا لانفسهم زوايا يجتمعون فيها مع مريديهم ويقرأون معهم الاوراد ويؤدون الاذكار .

وكانت تلك الطرق الصوفية تمثل نشوة دينية لجأ اليها المجتهدون من ابناء الاسلام تقربا الى الله واللجوء اليه في مواجهة الاخطار الاستعمارية التى حاقت بالاقطار الاسلامية خاصة في القرن التاسع عشر ، فهى اذن مظهر آخر لليقظة الاسلامية الى جانب المظاهر الاخرى السابقة الاشارة اليها واعنى بها الدعوات السلفية الثلاث وفكرة الجامعة الاسلامية .

ومما هو جدير بالذكر ان اشهر الطرق الصوفية كان لها فضل في نشر الدين الاسلامى بين الافارقة الوثنيين ، فالطريقة القادرية مثلا التى ينسب الى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى في بغداد عام ١١١٦ م وجد الزعيم الوطنى العراقى رشيد على الكيلانى ، انتشرت في المغرب العربى انتشارا كبيرا ، ومن هناك انتشرت في غرب افريقيا حتى سيراليون ومصب نهر النيجر ، وكانوا ينشرون الاسلام بين الافارقة بالاسلوب السلمى

(١٧٤) ديلاسى اوليرى : المرجع السابق ص ١٩٠ .

(١٧٥) د. محمد لطفى جمعة : المرجع السابق ص ٢٧٨ .

عن طريق التعليم والتجارة حيث يقوم اتباع الطريقة بفتح الكتاتيب لتعليم الاطفال الافارقة اوليات الدين الاسلامى والقراءة والكتابة باللغة العربية ثم يرسلونهم على نفقة زوايا الطريقة الى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس والجامع الازهر بمصر فيخرجون من هناك طلبة مجازين اى اساتذة ، ويعودون الى تلك البلاد لاجل مقاومة التبشير المسيحى في السودان (١٧٦) .

واما الطريقة الشاذلية والتي تنسب الى الحسن الشاذلى وتأسست في المغرب في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى . فقد كانت من اولى الطرق الاسلامية التى ادخلت التصوف الاسلامى في المغرب العربى ، واشتهر من شيوخها « سيدى العربى الدرقاوى » المتوفى عام ١٨٢٣م الذى كان يطلب من مربيه الطاعة العمياء لمشايعهم . وبسبب تفانى انصار الطريقة الشاذلية وخاصة الذين تأثروا بالشيخ الدرقاوى فقد اتصفوا بالحماسة الدينية وروح التضحية والفداء والرغبة في الاستشهاد فلاعجب ان نجد اتباع هذه الطريقة يواجهون الغزو الفرنسى للمغرب الاوسط - الجزائر - وفي غرب افريقيا مواجهة بطولية عنيدة .

وكانت الطريقة الثالثة التى ادت دورا في نشر الاسلام بين الافارقة هي الطريقة التيجانية التى تنتسب الى مؤسسها « احمد بن محمد التيجانى » المتوفى في مدينة فاس . عام ١٧٨٢ م . وقد صار للطريقة اتباع كثيرون في السودان والسنغال حتى المحيط الاطلنطى وكانوا من اشد انصار الاسلام والتفوا حول زعيم محلى للطريقة في السنغال يدعى الحاج عمر المولود في قرية على نهر السنغال عام ١٧٩٧ م وتعلم في زوايا الطريقة التيجانية وتعلم ايضا في الجامع الازهر بمصر ثم عاد الى وطنه عام ١٨٢٣ م . ومن هناك اخذ ينشر الاسلام بين الوثنيين من الافارقة تارة بالطريقة السلمية وتارة اخرى بالحرب ، وعندما مات الحاج عمر عام ١٨٦٥ م اثناء احدى المعارك ضد احدى القبائل الوثنية بغرب افريقيا ترك للطريقة التيجانية سلطنة اسلامية عظيمة في وسط بلاد السنغال واجهت الاستعمار الفرنسى اواخر القرن التاسع عشر ، حتى اعتبر الفرنسيون وجود هذه السلطنة التيجانية في وسط السودان خطرا عظيما على مشروعاتهم (١٧٧) .

(١٧٦) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ح ٢ ص ٣٩٦ .

(١٧٧) المرجع السابق . ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

واما السنوسية التى يعدها البعض طريقة صوفية ، فقد ساهمت في نشر الاسلام في «واداي» و «البجرمي» و «بورنو» ونواحى بحيرة تشاد ، وكانت طريقة السنوسيين في نشر الاسلام بين الافارقة تقوم على شراء الارقاء صفارا من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من السودان ويربونهم في زواياهم سواء بالجفوب او غيرها ، فاذا بلغوا اشدهم واكملوا تحصيل العلم اعادوهم الى بلادهم فيهدون اهلهم (١٧٨) ، الى جانب الدعاة السنوسيين الذين انتشروا في غرب افريقيا بصفة خاصة ، بالاضافة الى مقاومة السنوسيين من زواياهم للغزو الفرنسي على غرب افريقيا .

الفصل الرابع

الحركات التحررية والوحدية

– جامعة الدول العربية .

– حركات التحرير في العالم الاسلامى .

اولا باكستان .

ثانيا اندونيسيا .

– الوحدة الاسلامية

– منظمة المؤتمر الاسلامى

جامعة الدول العربية

لم يكن التفكير في وحدة العرب وليد الظروف والاتجاهات التي تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية ، ولم يكن وليد الاتجاهات الانجليزية حيال السياسة الدولية وما ينتشر في العالم من احداث وافكار ومخاوف تدفع الدول الى التكتل والتآلف وجمع الحلفاء والاعوان وضمان النفوذ في المواقع الهامة في العالم . فقد سبقت هذه الاتجاهات الجديدة رغبة العرب انفسهم في التكتل والتجمع وتوحيد الجهود ، بل امتدت هذه الرغبة في يوم من الايام فكانت تهدف - كما راينا - الى جمع الامم الاسلامية في نطاق واحد من الاتجاهات والتعاون والجهاد في سبيل النهوض والتحرر من خطر الاستعمار .

وبهذا ندرك خطأ الاعتقاد الذي ساد بأن فكرة الجامعة العربية كشكل من اشكال الاتحاد بين الاقطار العربية انما جاءت اول مرة على لسان المستر «انطوني ايدن» Antony Eden وزير الدولة للشئون الخارجية البريطاني في تصريحه عام ١٩٤١ م ، وان العرب استندوا الى هذا التصريح - الذي كان بمثابة الضوء الاخضر البريطاني كما يذكر البعض - للتفكير في اقامة منظمة تجمع اقطارهم وتعمل على تحقيق مصالحهم المشتركة وتجعل منهم أمة تستعيد مجدها بعد ان فرقها الاطماع الاستعمارية بعد الحرب العالمية الاولى .

وحقيقة الامر ان هذه الفكرة لم تكن جديدة على العرب حين ادلى المستر «انطوني ايدن» بتصريحه هذا (١) اذ ان العرب فكروا في جمع الشمل بعد الحرب العالمية الاولى تجاوزا للتجزئة التي فرضتها الدول الاوروبية الاستعمارية عليهم وبعد أن فشلت مشروعات الشريف حسين بن علي زعيم الهاشميين في اقامة الدولة العربية الموحدة والتي تضم بلاد الشام باقسامها المعروفة حاليا - سوريا ولبنان وفلسطين والاردن - الى جانب كل من العراق والحجاز ، ومن ثم تنالت مشروعات الاتحاد في الساحة العربية انطلاقا من وجود شعور عام مشترك يشمل مختلف الاقطار العربية دون ان يكون هنالك من يقصد ذلك او يسعى اليه ، اوجدته حركة انتشار الصحافة والطباعة والنشر والاذاعة والتمثيل والشعر والآداب

Fisher, S.N. : The Middle East. a history, P. 571.

(١)

وغيرها من الوسائل التي تساعد اتصال الافكار وتدانيها (٢) .

ورغم ان الاقطار العربية انشغلت كل على حدة تقريبا بحركة تحررها من النفوذ الاجنبى خاصة بعد الحرب العالمية الاولى مما اوضح الطابع الشخصي لشعوبها واطهر طابع الاقليمية واختلفت نظم الحكم في تلك الاقطار فخان منها الحكم الجمهورى ، والملكى الاوتوقراطى ، والملكى الدستورى ، كما لم تكن العلاقات السياسية بين حكومات هذه الاقطار على شيء من حسن الرابطة او تبادل التعاون من امثلة ذلك الخلاف بين السعودية واليمن من ناحية وبين السعودية والحكم الهاشمى في العراق والاردن من ناحية اخرى .

رغم كل ذلك فقد بقى في اعماق عواطف الشعوب العربية الوان من الحب الذى يربطها في وحدة من الجهاد والكفاح للتخلص من براثن النفوذ الاجنبى وتحركها عوامل الجنس واللغة والدين والارض المشتركة الممتدة من المحيط الاطلنطى الى الخليج العربى ، وكلها كانت تذكر العرب دائما بحقيقة الرابطة القومية التى تجمعهم وتدفع الكثيرين الى المناداة بالوحدة او تحقيق شكل ما من الاتحاد (٣) .

كانت فكرة الوحدة العربية اذن في ضمير العرب كمظهر لليقظة الاسلامية كدين والنهضة العربية كقومية ، ومن ثم تعددت مشروعات هذه الوحدة قبل ان تنهى الظروف لظهور جامعة الدول العربية . من بين تلك المشروعات « مشروع سوريا الكبرى » الذى تقدم به الامير عبد الله امير شرقى الاردن في يوليو ١٩٤١ الى الحكومة البريطانية بهدف ضم امارته الى سوريا ويصبح هو زعيم الدولة الجديدة . بل وعلى حد قوله يستعيد عرش الهاشميين في دمشق الذى سقط عام ١٩٢٠ م . ولكن هذا المشروع لم يلق تأييد بريطانيا من ناحية ، ومن ناحية اخرى جرت الانتخابات في سوريا عام ١٩٤٣ حيث تسلم الوطنيون الحكم الذى اصبح جمهوريا . ومن ثم سقط مشروع الامير عبد الله .

وكان المشروع الاتحادى الثانى في الساحة العربية هو مشروع 'الهلل' الخصب الذى تبناه نوري السعيد باشا رئيس وزراء العراق وقدمه في ديسمبر ١٩٤٢ م الى الحكومة البريطانية ايضا ، ويدعو هذا المشروع - الذى عرف بمشروع 'الهلل' الخصب - الى اقامة اتحاد فيدرالى بين كل

(٢) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ص ٢٢٩ .

(٣) د. صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ص ٦٨٦ .

من العراق وسوريا ولبنان وامارة شرق الاردن وفلسطين ، مع اعطاء اليهود المقيمين في فلسطين حكماً ذاتياً (٤) . ولكن الحكومة البريطانية لم تؤيد كذلك هذا المشروع الذي لم يجد قبولاً من جميع العرب — على حد قول المستر ايدن — (٥) الى جانب عدم موافقة الاطراف العربية المعنية على فكرة الهلال الخصيب .

وقد يقع البعض في خطأ عند دراسة فكرة انشاء الجامعة العربية بأن الحكومة البريطانية هي صاحبة الاهتمام الاول بهذه الفكرة بدليل تقديم حكام الاسرة الهاشمية في عمان وبغداد لمشروعاتهم الاتحادية الى الحكومة البريطانية ، وهذا في رأينا تشويه لتاريخ العرب الحديث والمعاصر ، اذ انه بصور بداية حركة الاتحاد وكأنها من صنع بريطانيا وليست استجابة لدوافع وطنية نابعة من داخل الشعب العربي (٦) ، بينما كان العرب يدركون ان سياسة بريطانيا « فرق تسد » Devide and Rule ، ومن ثم فانه من الضروري اقتراح الوسائل للوحدة العربية (٧) .

ومما تجب ملاحظته ان « مشروع سوريا الكبرى » و « مشروع الهلال الخصيب » مشروعات لا تحقق الاماني العربية حيث هدفت — هذه المشروعات — الى وحدة اقليمية ضيقة في منطقة من العالم العربي ولتحقيق مصالح لحكام « عمان » و « بغداد » ولعلنا لانجافي الصواب اذا قلنا ان فشل هذين المشروعين يرجع في جانب منه على الاقل الى استبعاد مصر من الانضمام الى ايهما بمعنى ان مصر لم تدع — للاشتراك في اي من المشروعين ، وفي رأي انه لو شاركت مصر في اي من المشروعين لما تحقق للحكام في « عمان » او في « بغداد » فرصة الزعامة في اي من الاتحادين .

وانطلاقاً من هذا نرى ان فكرة انشاء جامعة الدول العربية كشكل من اشكال الاتحاد العربي ، ولدت في مصر وتقررت بين الاقطار العربية على ارض مصر ، ولهذا تهيأ لها البقاء والاستمرار منذ قيامها الى الآن ، وليس هذا بغريب على موقف مصر من العروبة ، اذ وقفت مصر باستمرار الى جانب الشعوب العربية في كفاحها لنيل استقلالها حتى ومصر تناضل لأجله

Lenczowski, G. : The Middle East in World Affairs, P. 636. (٤)

Ibid. (٥)

(٦) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٩٥ .

Fisher, S.N. : Op. Cit., P. 571. (٧)

قوات الاحتلال البريطاني عن اراضيها ، وهذا لا ينفي ان كثيرا من المصريين اعتقدوا حتى اوائل الاربعينات من القرن العشرين بوجوب اعطاء الالوية في اية جهود تشارك فيها مصر لتحقيق الوحدة العربية الى وحدة وادى النيل . وهى الوحدة القائمة على اسس جغرافية طبيعية ، والتي يظهر فيها عامل المصلحة بصورة اوضح (٨) .

توفرت العوامل اذن بعد الحرب العالمية الاولى لتصل في النهاية الى تحقيق الاتحاد العربى في صورة جامعة الدول العربية التى ظهرت للوجود بعد الحرب العالمية الثانية ، وقبل ان نناقش كيفية قيام جامعة الدول العربية علينا ان نعرف ظروف العالم العربى بعد الحرب العالمية الاولى وتطور هذه الظروف حتى الحرب العالمية الثانية .

عندما انتهت الحرب العالمية الاولى بأنهاء الوجود التركى في الارض العربية تأثرت القومية العربية بعاملين احدهما قديم يستمد اصوله من افكار القوميين العرب ومن اتجاهات الثورة العربية التى قادها الشريف حسين في جانب الحلفاء مستغلة الى حد كبير آمال العرب القومية ، والعامل الثانى جديد تأثر بسياسة الحلفاء لتقسيم العالم العربى فيما بينهم ، وقيام انظمة مختلفة للحكم في الاقطار العربية بحدود سياسية تفصل بينها وتخضع لنفوذ استعمارى بشكل او بآخر ، فقامت في العراق دولة ملكية تحت حكم فيصل الاول بن الشريف حسين ، وفي شرق الاردن انشئت امارة جديدة يحكمها اخوه الامير عبد الله . وقامت فرنسا بفصل سوريا ولبنان وانتهى الامر بهما الى اقامة نظام جمهورى في كل منهما .

اما في شبه الجزيرة العربية فقد استطاع « عبد العزيز آل سعود » ان يضم الى سلطنة نجد الحجاز وامارة عسير ويكون المملكة العربية السعودية الحديثة منذ عام ١٩٣٢ م ، واستقل الامام « يحيى حميد الدين » باليمن ، ومنحت مصر استقلالها على اساس تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م . وبقيت فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، واعترف الحلفاء بقيام وطن قومى لليهود فيها . وظل السودان خاضعا للحكم الثنائى اسما الانجليزى فعلا ، واما اقطار المغرب العربى - ليبيا وتونس والجزائر والمغرب - فقد ظلت تكافح الاستعمار الايطالى والفرنسي والاسبانى .

(٨) د. انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ص ٦٤ .

وشغلت كل هذه الاقطار بنفسها وباستقلالها عن الاستعمار الاوروبى واستقلالاً كاملاً عن الوحدة العربية المنشودة ، كما كان للخلافات التى قامت بين آل سعود والهاشميين ، وما حدث بين اليمن والمملكة العربية السعودية من خلافات اثره في تعثر التفاهم بينها جميعاً ، وكان للخلافات القديمة التى قواها الفرنسيون بين المسلمين والموارنة في الشام اثرها في تباين الجهود الوطنية واضطرابها في دولتى المشرق سوريا ولبنان (٩) .

وتأثرت مصر في غمار جهادها الوطنى عن هذا المعترك الجديد ، وبرزت فيها نزعة وطنية صميمة تزعمها بعض الشباب ممن تلقوا ثقافتهم وتعليمهم في دول الغرب ، ترمى هذه النزعة الى احياء الفكرة المصرية الاصيلية متأثرين في هذا بما شاهده قبيل الحرب العالمية الاولى من قيام الدولة القومية وانتصارها في اوربا ، ثم وقع حادث المحمل بين المصريين والسعوديين اثناء موسم الحج عام ١٩٢٧ م فأدى الى قطع العلاقات بين مصر والسعودية .

ولكن هذه التيارات العديدة على اختلافها لم تستطع ان تقضي على الشعور الاصيل بالوحدة العربية بين شعوب الاقطار العربية جميعاً ، فكلها تتحدث اللغة العربية وتدين بالاسلام وتجرى في عروقها دماء عربية ويجمع بينها تقاليد متقاربة وتاريخ متوارث واحداث متشابهة في كفاحها للاستقلال والحرية ، فأخذت تسوى خلافاتها وبدأت محاولات عديدة في هذا السبيل ، فتم اجتماع العاهلين العربيين عبد العزيز آل سعود وفيصل الاول بن الحسين على بارجة حربية في خليج البصرة في فبراير عام ١٩٣٠ م ، وفي ٧ أبريل من العام التالى - ١٩٣١ - أبرمت معاهدة صداقة بين المملكة العربية السعودية والعراق جاء في ديباجتها ما يلى : وبناء على رغبة جلالتهما في بذل ما يستطيع لجمع شمل الامة العربية وتوحيد كلمتها ...

وفي ١١ مايو ١٩٣١ م عقدت في صنعاء معاهدة صداقة بين العراق واليمن جاء في مقدمتها :

تمهيدا لتوحيد كلمة الامة العربية ... وفي عام ١٩٣٤ عقدت اتفاقية صداقة بين اليمن والمملكة العربية السعودية .. وتلى هذا - عام ١٩٣٧ م - ابرام حلف عربى يضم المملكة العربية السعودية واليمن والعراق تنضم اليه

(٩) د. حسين النجار : الشرق العربى بين حربين ص ٢٨ - ٢٩

الدول العربية المستقلة أو التي تستقل فيما بعد (١٠) ، وبدأت شقة الخلاف بين الموارنة والمسلمين في سوريا ولبنان تضيق ليجمع بينهما الكفاح المشترك ضد الفرنسيين . وعقدت بين مصر والمملكة العربية السعودية معاهدة أخوة وصداقة عام ١٩٣٦ لانتهاء فترة الجفاء التي أعقبت حادث المحمل قبل عشر سنوات تقريبا (١١) .

وكان الشعور المتبادل بمأساة فلسطين الظاهرة البارزة لتقارب الشعوب العربية ، فعمدت مؤتمرات عربية في القدس والقاهرة وبلودان بسوريا ، وانضم المتطوعون من كافة البلاد العربية لمساعدة المناضلين العرب في ثورتهم على الانتداب البريطاني والصهيونية في فلسطين عام ١٩٣٦ م ، وكان مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت اليه الحكومة البريطانية في لندن عام ١٩٣٩ م لعلاج مشكلة فلسطين أول اجتماع رسمي يجتمع فيه ممثلو الدول العربية ، وقد لبى الدعوة الى المؤتمر حكومات مصر والعراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن واليمن . وحالت فرنسا دون اشتراك كل من سوريا ولبنان في المؤتمر (١٢) .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فقوت أوأصر التقارب العربي ، فقد الهبت الحرب عواطف العرب القومية وجمعهم الامل بقرب انهيار النفوذ الاستعماري في بلادهم بهزيمة بريطانيا وفرنسا ، ولم يكن العطف على دول المحور - ألمانيا وإيطاليا واليابان - الا من باب النقمة على دولتي انجلترا وفرنسا الاستعماريتين ، ووجدت حركات المقاومة نوعا من العطف الشعبي عليها ، وكانت الاعتداءات على الجنود البريطانيين في مصر تجد لونا من العطف الشعبي على كل من ينهض لمقاومة الاستعمار مهما كانت وسائل المقاومة ، كما وجدت حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق بعض التأييد سواء في العراق أو في الاقطار العربية الأخرى ، وكانت هي بدورها ظاهرة طبيعية للتعبير عن الكراهية الكامنة لاحتلال بريطانيا ونفوذها في العراق .

ولقيت الحركة الاستقلالية التي قامت في سوريا ولبنان ضد الفرنسيين كل انواع العطف والتأييد الشعبي والحكومي في مصر والعراق وبقيّة الاقطار

(١٠) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٨٧ .

(١١) وزارة الخارجية السعودية : المعاهدات ..

(١٢) د . حسين فوزي النجار : المرجع السابق ص ٢٩ .

العربية ، فقد ايقظ انهيار فرنسا امام الغزو المانى عام ١٩٤٠ آمال السوريين واللبنانيين بقرب تحقيق استقلالهم وانهيار الانتداب الفرنسى .

وتنبهت بريطانيا لخطورة العداء العربى للاتجليز والفرنسيين فأرادت امتصاص هذا العداء بتصريحات المستر انطونى ايدن وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية خلال عامى ١٩٤١ و ١٩٤٣ م بتأييد بريطانيا لوحدة العرب بشرط أن تنبع من رغبة العرب انفسهم ، كما انه عندما دخلت القوات الانجليزية مع قوات فرنسا الحرة الى سوريا ولبنان في يوليو ١٩٤١ وطرده ممثلى حكومة فيشي من القطرين العربيين اعلنت انجلترا اعترافها باستقلال سوريا ولبنان واستجابت حكومة فرنسا الحرة لقرار حليفها على أن يتم ذلك بعد انتهاء الحرب .

وخلاصة ما رأيناه من ظروف العالم العربى خلال الحربين العالميتين ان الاقطار الواقعة في شبه الجزيرة العربية والاقصى تحضرًا تمتعت بالاستقلال في الوقت الذى كانت فيه الاقطار المتطورة نسبيا مصر وسوريا ولبنان ترزح تحت نير النفوذ الاجنبى ، ولم يكن هناك مجال امام المملكة العربية السعودية او اليمن لتزعم الدعوة الى الوحدة العربية ، بينما تطلعت حكومة العراق في الثلاثينات من القرن العشرين الى تزعم هذه الدعوة ، الا ان مصر اخذت تجتذب الى السياسة العربية منذ أن اشتركت في مؤتمر المائدة المستديرة الخاص بفلسطين والذى عقد بلندن سنة ١٩٣٩ م (١٣) .

وعلى هذا فقد اخذت مصر زمام المبادرة في الدعوة لبحث تشكيل منظمة تحقق امل العرب في الوحدة دون أن تطرح حكومة مصطفى النحاس شكلا معينا من اشكال الوحدة ، وجاءت هذه المبادرة في شكل توجيه دعوات من رئيس الحكومة المصرية الى رؤساء الحكومات العربية لزيارة القاهرة كل على حدة للبحث في خير السبل لتحقيق هدف العرب وذلك في صيف عام ١٩٤٣ .

ورغم تباین وجهات نظر حكومات الاقطار العربية بين متشكك في امكانية قيام اتحاد بين الدول العربية وبين مؤيد بحماس للوحدة العربية، وبين متحفظ بالنسبة للجوانب السياسية فقد انتهت المناقشات الى عقد

(١٣) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٨٨ .

اجتماع بمدينة الاسكندرية في ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤ م حضره مندوبون عن كل من مصر والمملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة التوكلية اليمنية والجمهورية السورية والجمهورية اللبنانية ومملكة العراق وامارة شرقى الاردن .

أقر اجتماع الاسكندرية ما عرف باسم « بروتوكول الاسكندرية » الذى تضمن مبادئ عامة للتعاون بين الدول العربية المجتمعة بالاسكندرية في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية . ثم تكونت لجنة فرعية لصياغة ميثاق « لجامعة الدول العربية » وهو الشكل الذى انتهى اليه الراى كصورة للوحدة العربية ، وصدر الميثاق في ٢٢ مارس ١٩٤٥ م في مدينة القاهرة التى صارت مقرا للجامعة العربية بكل مؤسساتها ، انطلاقا من سبق مصر في المجال الثقافى والحضارى ونقلها السكانى بالمقارنة مع الدول العربية الست الاخرى الاعضاء في الجامعة مجتمعين (١٤) .

وبهذا الميثاق صارت جامعة الدول العربية منظمة اقليمية تحاول تحقيق المصلحة العربية بقدر ما تسمح لها سياسات الحكومات العربية ، وقد وقع على الميثاق كل من : فارس الخورى رئيس وزراء سوريا ، وسمير الرفاعى باشا رئيس وزراء شرقى الاردن . وارشد العمري وزير خارجية العراق ، ويوسف ياسين نائب وزير خارجية المملكة العربية السعودية . وعبد الحميد كرامى رئيس وزراء لبنان . ومحمود فهمى النقراشي باشا رئيس وزراء مصر ، ومندوب عن اليمن .

وقد تضمن الميثاق ثلاثة ملاحق احدها خاص بفلسطين يقضى باختيار مندوب يشارك في اعمال مجلس الجامعة . والملاحق الثانى خاص بالاقطار العربية التى لم تحصل بعد على استقلالها ويقضى بمراجعة المجلس لانيها ويساعدها على تحقيقها . والملاحق الثالث يقضى بتعيين عبد الرحمن عزام بك امينا عاما لجامعة الدول العربية لمدة سنتين . كما تضمن الميثاق تشكيل عدة منظمات أو هيئات تحقق الوحدة بين العرب خاصة في النواحي الثقافية والعسكرية والاقتصادية (١٥) .

The American Assembly : The United States and The Middle East, P. 94. (١٤)

(١٥) د. محمد كامل ليلة : المجتمع العربى والتومية العربية ص ١٥٦

وفي نطاق الجامعة العربية ظهرت خطوات وحدوية بعضها تحقق والبعض الآخر تعثر ، من بينها ميثاق الضمان الجماعي العربي للدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي الذي عقد بين دول الجامعة السبع في ٢ رمضان ١٣٦٩ هـ الموافق ١٧ يونيو ١٩٥٠ م وقعه كل من الدكتور ناظم القدسي بك رئيس وزراء سوريا ، ونوري السعيد رئيس وزراء العراق ، والشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ووزير الخارجية السعودية بالنيابة ، ورياض الصلح بك رئيس وزراء لبنان ، ومصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر ، والسيد على المؤيد مندوب اليمن الدائم في الجامعة العربية ، وعونى عبد الهادى مندوب عن المملكة الاردنية الهاشمية .

وجاءت الخطوة الوحدوية الاخرى في شكل المشروع المقدم من الدكتور ناظم القدسي رئيس مجلس وزراء سوريا الى اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في يناير ١٩٥١ م بشأن اقامة اتحاد بين الدول العربية مستندا الى خطر الانقسام بين العرب في وجود مطامع استعمارية ووجود صهيونى في فلسطين وطرح ثلاثة أشكال للوحدة : الاول الدولة المتحدة العربية ، والشكل الثانى اتحاد الدول العربية فيدراليا ، والشكل الثالث اتحاد الدول العربية كونفيدراليا .

وجاءت خطوة وحدوية اخرى في يناير ١٩٥٤ م في شكل مشروع للاتحاد العربى مقدم من الدكتور محمد فاضل الجمالى رئيس وزراء العراق الى مجلس جامعة الدول العربية في دورته العشرين ، واشار المشروع الى صعوبة تحقيق الوحدة العربية الشاملة بين الاقطار العربية ، وان البديل لذلك هو اقامة وحدة بين بعض الاقطار العربية الراغبة والمهيئة للدخول في وحدة ، على ان تقوم الوحدة في شكل توحيد للسياسة الخارجية والدفاع والشئون الاقتصادية .

كما جاءت خطوة اخرى تؤكد الاتجاه الوحدوى العربى في شكل اتفاقية للدفاع المشترك بين مصر وسوريا عقدت في ٤ ربيع الاول عام ١٣٧٥ هـ الموافق ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٥ م ، كما عقدت اتفاقية مماثلة للدفاع المشترك بين مصر والمملكة العربية السعودية في ١١ ربيع الاول ١٣٧٥ هـ الموافق ٢٧ اكتوبر ١٩٥٥ م ، واتفاقية ثالثة مماثلة بين كل من حكومة جمهورية مصر وحكومة المملكة العربية السعودية

وحكومة المملكة المتوكلية اليمنية في ١١ رمضان ١٣٧٥ هـ الموافق ١١ ابريل ١٩٥٦ م (١٦) .

وجاءت خطوة وحدوية كبرى باعلان الوحدة الكاملة بين مصر وسوريا في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ م ، تلك الوحدة التي تعد تطورا عمليا لميثاق جامعة الدول العربية . ولولا التآمر من أعداء الوحدة في الداخل والخارج لاستمرت هذه الوحدة مدة أطول بل ولانضم اليها أعضاء جدد كما حدث عندما انضمت اليمن الى « الجمهورية العربية المتحدة » (وحدة مصر وسوريا) فيما عرف باسم « اتحاد الدول العربية » . واذا كان أعداء الوحدة قد نجحوا في انفصال سوريا عن مصر في سبتمبر ١٩٦١ م ، واذا كانت ثورة اليمن في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م قد جمدت اشتراك اليمن في « اتحاد الدول العربية » فان روح الوحدة استمرت .

ولعل خير دليل على ذلك هو توقيع ميثاق بين العراق وسوريا ومصر في ١٧ ابريل ١٩٦٣ م لاقامة وحدة ثلاثية فيدرالية . ورغم أن هذه الوحدة لم يقدر لها التحقيق الا انها كانت خطوة وحدوية على الطريق خاصة وأن العراق شارك في هذا الميثاق بعد أن قامت ثورته عام ١٩٥٨م انهدم حكم الهاشميين الذين كانوا قد أقاموا اتحادا هاشميا بين حكومتى العراق والاردن قبل قيام ثورة العراق بأربعة شهور . ومع أن المشروع لو نفذ لكان حدثا تاريخيا بالنسبة للامة العربية الا ان الجماهير لم تكتثر به لان الاشكال الدستورية لا تؤثر في الراى العام العربى الذى الف مبداء الامر الواقع والنظام الشخصى في الحكم (١٧) .

وجرت محاولات وحدوية في المغرب العربى عقب حصول اقطاره على استقلالها قامت على أساس وحدة المغرب العربى الكبير - ليبيا وتونس والجزائر والمغرب - ، وسارت هذه المحاولات شوطا لا بأس به في مجالات الاقتصاد والتعاون الثقافى حتى قامت ثورة الفاتح من سبتمبر في ليبيا عام ١٩٦٩ م فتجمدت هذه المحاولات بسبب اتجاه ليبيا الى المشرق العربى بصفة عامة ومصر بصفة خاصة لتحقيق مشروعات وحدوية، الى جانب نفور الجزائر بصفة خاصة من الدخول في وحدة تحت الزعامة التونسية .

(١٦) وزارة الخارجية السعودية : مجموعة المعاهدات .

(١٧) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٧٠٥ .

وجاء اعلان ميثاق طرابلس في ٢٧ ديسمبر ١٩٦٩ م بين كل من جمهورية السودان الديمقراطية في ظل ثورة ٢٥ مايو ١٩٦٩ م بقيادة الرئيس جعفر محمد نميري ، والجمهورية العربية الليبية في ظل ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ م بقيادة معمر القذافي ، والجمهورية العربية المتحدة بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر ، خطوة أخرى على طريق الوحدة العربية ، ثم انضمت الى الميثاق الجمهورية العربية السورية بعد حركة التصحيح التي قادها الرئيس حافظ الأسد في ١٥ نوفمبر عام ١٩٧٠ م . وقد حدد الميثاق اهدافه باتخاذ الخطوات العملية في مجالات الثقافة والاقتصاد والسياسة والجيش للوصول الى الوحدة الكاملة بين أعضاء الميثاق على أسس ثابتة ، فشكلت لجان في مختلف المجالات من أجل توحيدها لتكون أساسا للوحدة الدستورية بين الدول الأربع .

ثم أعلن « اتحاد الجمهوريات العربية » في ١٧ أبريل ١٩٧١ م بين جمهوريات : مصر العربية برئاسة محمد أنور السادات ، والعربية الليبية برئاسة معمر القذافي ، والعربية السورية برئاسة حافظ الأسد على أن تنضم الى الاتحاد جمهورية السودان الديمقراطية متى تهيأت لها الظروف المناسبة ، وقد تشكل لهذا الاتحاد مجلس رئاسة من الرؤساء وصار الرئيس أنور السادات رئيسا للمجلس ، كما تشكل مجلس أمة اتحادي ترأسه مواطن ليبي ، ومجلس وزراء اتحادي ترأسه سوري .

وفي عام ١٩٧١ م أيضا أعلن عن تشكيل دولة الامارات العربية المتحدة من امارات الخليج العربي السبع : أبو ظبي ، دبي ، الشارقة ، رأس الخيمة ، أم القوين ، عجمان ، الفجيرة . وفي نفس العام أعلن استقلال كل من دولة قطر ودولة البحرين . وفي ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ الموافق ٢ أغسطس ١٩٧٢ م أعلن الرئيس أنور السادات ومعمر القذافي قيام وحدة اندماجية بين جمهورية مصر العربية والجمهورية العربية الليبية في بنغازي ونص الاعلان على أن تكون عاصمة دولة الوحدة في جمهورية مصر العربية ، وأن يكون لها مجلس رئاسة من الرئيسين حتى يتم انتخاب الرئيس بواسطة الشعب ، وأن تتشكل لجان في مختلف المجالات من أجل تحقيق الاندماج الكامل .

ومن المشروعات الحدودية على الساحة العربية المحاولات التي بذلت لجمع الجمهورية العربية اليمنية مع جمهورية اليمن الديمقراطية في دولة موحدة ، وتلك التي بذلتها ليبيا لالاتمام وحدة مع تونس . ثم جاءت حرب

رمضان اكتوبر ١٩٧٣ م التى شاركت فيها جميع الدول والشعوب العربية كل بقدر جهده وبحسب امكانياته . واذا كانت دماء المصريين والسوريين والفلسطينيين بصفة خاصة . ودماء الجنود العرب المشاركين في الحرب بصفة عامة قد سالت بفرارة لتحقيق نصر على الصهيونية فان روح العرب بكامل امكانياتها ساهمت في المعركة حتى يمكن القول ان روح العروبة هى التى انتصرت فحققت بذلك اروع وحدة عربية شاملة غير معلنة .

وخاتمة القول ان جامعة الدول العربية التى خرجت الى الوجود منذ عام ١٩٤٥ م رغم انها لم تكن الصورة المثلى لتحقيق الامانى العربية في الوحدة بين الاقطار العربية الا انها كانت صورة مشرقة على طريق الوحدة العربية خاصة اذا لاحظنا ان الجامعة التى بدأت بسبعة اعضاء صارت تضم حاليا اثنتان وعشرين عضوا . واذا لاحظنا ظهور مؤسسات وحدوية مثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومنظمة الوحدة الاقتصادية ، والمنظمة العربية للدفاع الاجتماعى ، وغيرها من المنظمات التى تشمل جميع الانشطة في الدول الاعضاء .

حركات التحرير في العالم الاسلامى

شهد القرن التاسع عشر ذروة الهجمة الاستعمارية ضد الشعوب الافريقية والاسيوية وبها الكثير من المسلمين ، ومن ثم تسليح مسلمو بعض الاقطار التى خضعت للاستعمار الاوروبى بمبادئ الدين الاسلامى الحنيف - خاصة ما يحض منها على الجهاد - في مقاومة الوجود الاستعمارى على ارضهم ، ومن ثم شهدت هذه الارض حركات تحريرية رائدها الاسلام في ظل اليقظة الاسلامية العامة التى شهدتها العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين او بالاحرى خلال قرنين من الزمان منذ منتصف القرن الثامن عشر الى منتصف القرن العشرين .

وفي اطار هذه الدراسة نسوق بعض الامثلة على حركات التحرير في العالم الاسلامى وماذا حققت من انجازات ومدى ما كان لها من ايجابيات اسهمت في حركة اليقظة الاسلامية .

أولا : باكستان :

يبدأ التاريخ للباكستان بدخول الاسلام الى شبه القارة الهندية على ايدى التجار العرب اذ كان للعرب علاقات تجارية مع الهند ترجع الى سنوات طويلة قبل ظهور الاسلام ، ولكنهم حين وفدوا الى شبه القارة الهندية مسلمين في مطلع القرن العاشر الميلادى اقاموا على طول الساحل الغربى وتزاوجوا مع أهل البلاد حتى اذا جاءت الفتوح الاسلامية في عهد الامويين وجدت الطريق ممهدا لنشر العقيدة الاسلامية ، حتى اذا اخذ نفوذ العباسيين يتقلص عن الهند بضعف دولة الخلافة استقل بحكمها بعض الامراء ، وكان هذا النفوذ غالبا في غرب الهند ، او ان شئنا التحديد ، قلنا في ارض السند وهى المنطقة التى تكون باكستان الغربية اليوم (١٨) .

ومما تجب ملاحظته ان المسلمين منذ أن دخلوا السند وانحدروا منها الى بقية شبه القارة الهندية لم يتخلوا عن هذه البلاد قط ، كما ان الفاتحين الذين جاءوا قاصدين الهند وفدوا بطريق السند - باكستان الحالية - من الشرق او من الغرب ثم انحدروا الى الهند (١٩) . وكان أول فتح اسلامى

(١٨) عبد المنعم النمر : كفاح المسلمين في تحرير الهند ص ١٩ .

(١٩) د . احسان حقى : باكستان ماضيها وحاضرها ص ٤١ .

كبير للهند هو ذلك الفتح الذى قاده محمود الغزنى أمير الافغان عام ١٠٠١ م حيث اتخذ من البنجاب مركزا انطلق منه الفاتحون الاسلاميون بعده لفتح بقية اجزاء شبه القارة الهندية بل ولنشر الاسلام الذى وجد قبولا كبيرا لدى اهل الطبقات الدنيا والفقيرة من الهنود الذين دخلوا الاسلام افواجا وتمتعوا بما ينادى به الاسلام من اخوة حتى كانوا بعد ذلك يرتقون الى مستوى الفاتحين (٢٠) .

ومنذ ان وفد الاسلام الى الهند والمسلمون لهم القوة والجاه والسيادة في شبه القارة الهندية . فكانت الدولة الاسلامية التى اسسها قطب الدين محمد الغورى عام ٥٨٩ هـ الموافق ١١٩٣ م ، على انقاض الدولة الغزنوية ، اقوى دولها . فقد وسعت كل شمال الهند من مرتفعات « فنديا » جنوبا الى جبال « الهمليا » شمالا ، ثم تلتها اسرات اسلامية قوية حكمتها خلال القرون الخمسة التالية متخذة من دهلى مركزا وعاصمة للدولة الاسلامية ، وان لم تحاول التوسع جنوبا أو تجعل من الهند كلها دولة اسلامية موحدة .

حتى اذا كان عام ٩٣٢ هـ الموافق ١٥٢٦ م حكمت الهند الدولة « التيمورية » او الدولة المغولية التى كان عهدها ازهى عصور الحكم الاسلامى في شبه القارة الهندية ، وبلغت من القوة والاتساع حدا لم تشهده دولة اسلامية سابقة في الهند ، وشهدت البلاد في عهدها حضارة من ازهى الخضارات الاسلامية (٢١) .

وكان دخول الاسلام الى البنغال الشرقية - جمهورية بنجلاديش الاسلامية حاليا - اعظم دليل على قوة الاسلام ومبادئه التى جذبت اليها كثيرا من الهندوس فأقبلوا على اعتناق الدين الاسلامى افواجا ، ومنذ القرن الثانى عشر الميلادى غزت هذه البلاد اسرة هندوكية متعصبة نزلت عليها من الجنوب وفرضت نظام الطبقات الهندوكى في صرامة وشدة وتعصب ، فلما جاء المسلمون وغلبوا هذه الاسرة الحاكمة ودعوا للدين الاسلامى استهوت دعوتهم المغلوبين على امرهم وراوا في الدين الجديد مساواة لم يروها في الديانة الهندوكية فأقبلوا على اعتناقه وتحولوا من الهندوكية الى الاسلام ، وكان للدعاة والتجار المسلمين الذين انحدروا الى تلك المناطق الموسمية

(٢٠) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ج ٤ ص ١٨٠ .

(٢١) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢٠ .

الغنية الفضل الاول في نشر الدين الاسلامى في ارجائها الواسعة ، وكسان انتشار الاسلام في هذه المناطق وفي اندونيسيا والملايو والصين على ايديهم .

ولكن منذ القرن السادس عشر اخذت الدولة الاسلامية في الهند تضعف وتتفكك رقعتها الواسعة باعلان بعض الامراء استقلال المناطق التى يحكمونها ، وشعر البراهمة بأنهم مهددون بالخراب والاندثار فشرعوا يبشرون بدعوة لليقظة الهندية فأل الأمر الى تضعف سلطان السلالة المغولية (٢٢) . وجمع بعض امراء الهندوس والسيخ الجيوش وشنوا حروبا على الدولة الاسلامية واقتطعوا لهم من جسمها الكبير ولايات يحكمونها ، والمملوك المسلمون في دهلى يضعفون شيئا فشيئا ، وينحسر نفوذهم وينكمش ، حتى لم يعد لهم سلطان ولا نفوذ (٢٣) حتى اذا كان اوائل القرن الثامن عشر انقرضت المملكة المغولية (٢٤) .

جاء تفتت الدولة الاسلامية في شبه القارة الهندية مهيا للاطماع الاستعمارية الاوروبية لكى تحقق اهدافها ، فالى جانب البرتغال ظهرت شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهند الشرقية الفرنسية وشركة الهند الشرقية البريطانية متصارعة جميعا لبط نفوذها على ممتلكات الدولة الاسلامية في الهند ، وانتهى الصراع بفوز شركة الهند الشرقية البريطانية بالغنيمة .

ولقد تركت الدولة الاسلامية في شبه القارة الهندية آثارا آية في الروعة والعظمة منها على سبيل المثال لا الحصر مقبرة السلطان «جهان كير» وهى تقع في بستان كبير يقع على بعد بضعة كيلو مترات من مدينة لاهور ، وكتب على المقبرة : نور الدين محمد جهان كير بادشاه ١٠٣٧ هـ ، وقبر زوجته « نور جهان » المشابه لمقبرته والى تبعد عنها بحوالى كيلو متر واحد (٢٥) . كما كان من الآثار الاسلامية كذلك قبر « تاج محل » الذى بناه السلطان « جهان شاده » سنة ١٦٣٠ م لزوجته المحظية التى كان قد ملك هواها قلبه وتدعى « الاميرة ممتاز محل » في « آجرا » التى تقع الان في

-
- (٢٢) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ١٨٠ .
 - (٢٣) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢١ .
 - (٢٤) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ١٨٠ .
 - (٢٥) د . احسان حقى : المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١ .

جمهورية الهند ، وكانت الاميرة « ممتاز محل » قد ماتت وهى نفسها في مقتبل العمر فنأشدت السلطان أن يخلد اسمها في بناء عظيم الشأن فبنى لها ذلك المدفن النادر المسمى بالتاج (٢٦) .

أخذت شركة الهند الشرقية البريطانية تخطط للانفراد بالنفوذ الاعلى في شبه القارة الهندية دون معارضة الدولة الإسلامية بالهند . فعمدت الى الايقاع بين الامراء المسلمين باعانة البعض بالمال والرجال ضد البعض الآخر . وما كاد ينتصف القرن الثامن عشر حتى أمسكت الشركة بدخل الولايات الإسلامية وغير الإسلامية في شبه القارة الهندية ، وقد أساء هذا الوضع امراء الدولة الإسلامية فتعددت مواقفهم الحازمة ضد مؤامرات الشركة البريطانية ، كان من بين هذه المواقف موقف الامير « سراج الدولة » في البنغال عام ١١٧٠ هـ الموافق ١٧٥٧ م وموقف الامر « حيدر » في الجنوب في عام ١١٩٥ هـ الموافق ١٧٨١ م وموقف ابنه « السلطان تيبو » ، الا أن هذه المواقف لقيت الفشل بسبب خيانة بعض القواد وضعف نفوس بعض امراء الولايات الذين استمالهم الانجليز (٢٧) .

وكان المسلمون اصحاب السيادة في الهند حتى بدأت جولة الاستعمار الاوروبى ودخلت الهند تحت النفوذ البريطانى فعملوا على اضعاف المسلمين وكسر شوكتهم حتى يلين لهم الامر في المستعمرة الفنية الواسعة . ورغم ان شركة الهند الشرقية البريطانية بدأت نشاطها في الهند بالسعى الى جنى الارباح وكسب الاموال ، الا انها سرعان ما تحولت الى حكومة ذات سياسة طموحة ترمى الى الفتح والامتلاك . فكان من شأن هذا التحول ان ايقظ الكثير من اهل الهند الى حقيقة السياسة البريطانية الاستغلالية مما كان السبب في انفجار بركان الثورة عام ١٨٥٧ م (٢٨) .

تزعج الثورة ضد الانجليز المسلمون وبعض الهندوس الذين نكبهم الانجليز ، وبسبب تأخر الثورة وسياسة الانجليز فرق تسد فقد فشلت

(٢٦) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ٣٢١ . ويمكن الاستزادة من معلومات حول تاج محل من كتاب دكتور احسان حقى ، الى جانب ستودارد .

(٢٧) د . عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٢٨) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ١٨١ .

الثورة ، وتحمل المسلمون وحدهم نتائج فشلها ، ونتج عن هذه الثورة اصدار قرار من الحكومة البريطانية بإلغاء حكومة شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند عام ١٨٥٩ م وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطانى، ونودى بعد ذلك بالملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا امبراطورة على الهند كذلك، ونجم عن كل ذلك تقوية السلطة السياسية البريطانية في الهند وزيادة تفلفل النفوذ الاوروبى الذى اندس في كل نواحي الحياة كالتعليم والمواصلات وغيرها من الجوانب التى كانت وسائل لانتشار نظم الحياة والآراء الاوروبية .

وبعد اخماد الثورة اصبح الهدوء يعم كل أرجاء الهند وانزوى المسلمون بعيدا عن التعاون مع الحكم الجديد، وآثروا ان يتعدوا عن المدارس المدنية التى انشأها الانجليز بالهند ، وكانوا يريدون منها تخريج طائفة من الموظفين تعرف الانجليزية وتلم ببعض العلوم الحديثة لتساعدهم في مقاصدهم الاستعمارية بالهند ، وكان المسلمون حكام البلاد قبل الانجليز فأبوا ان يستخدمهم الانجليز في هذه المقاصد ، وآثروا ان يقتصروا على التعليم في مدارسهم الدينية وان يتعدوا عن هذه الوظائف ، وقد زاد هذا في تأخرهم وفقرهم ، وفي ظهور طائفة الهندوس عليهم لانهم لم يأبوا الالتحاق بالمدارس التى انشأها الانجليز ، ولم يأبوا الالتحاق بتلك الوظائف (٢٩) . وهكذا بقى المسلمون في عزلتهم بينما اقبل الهندوس على المدارس التى افتتحها الانجليز في الهند ، واصبحوا وقد آل اليهم كثير من أمور البلاد مما لا يليه الانجليز ، وتسلم المسئولون البريطانيون البلاد التى كانت تسرى فيها الثقافة والحضارة الاسلامية ليطبعها بطابعه ، ويقضي على كل اثر فيها للحكم الاسلامى السابق ليفتح الطريق لثقافته ونفوذه (٣٠) .

وفي هذه الحال من التأخر والانحطاط اللذين نزلا بالمسلمين في الهند كما نزل بغيرهم من المسلمين في بلاد الاسلام الاخرى ، قام السيد « احمد خان » يدعو المسلمين الى حياة جديدة وتفكير جديد ورسم لهم السبيل وخط لهم النهج الذى يسلكون ، وكان طريق العلم والمعرفة ، ووضع اساس جامعة « عليكرة » ، واصدر عددا من الصحف تدعو لفكرته فيها ، وعمل طوال حياته على جمع شتات المسلمين وتوحيد صفوفهم وبعث الايمان العميق بحضارتهم وقوتهم كما كان اجدادهم الاوائل . ووضع رسالة باللغة الاوردية الهندية اشاد فيها بثورة عام ١٨٥٧ م واثبت انها

(٢٩) عبد المتعال الصعدي : مرجع سبق ذكره ص ٤٨٣ .

(٣٠) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢٣ .

ثورة شعبية قامت بسبب المظالم التى تقع من الانجليز في الهند الى ما يروونه من سعيهم في تغيير عقائدهم ، ومساعدتهم المبشرين المسيحيين فيما يأتونه من الطعن في هذه العقائد (٣١) .

وفي ظل الضعف الذى الم بالمسلمين بدا الهندوس يشنون حملاتهم على المسلمين ، ودفع الانجليز المرايين الهندوس الى انتزاع اmlاك المسلمين ، وتولى الوظائف الكبيرة في الدولة ووضع العراقيل المادية في سبيل الذين يحترفون التجارة من المسلمين ، ونفخ الاستعمار في لهيب الخلاف بين الطائفتين ، وازدادت شدة الخلافات بينهما حتى آمن السيد « احمد خان » بأن الهندوس والمسلمين لن يجمع بينهما ونام . ولن تكون الفة بين الفريقين ، وان الاقلية الاسلامية ستضيع في ذلك المحيط الهندسي الزاخر .

وجاء توجيه الانجليز للهندوس عام ١٨٨٥ بتأسيس حزب هو حزب المؤتمر الذى لم ينشأ نتيجة قوة وطنية كتلك التى رايناها في مصر عند انتهاء الحرب العالمية الاولى وتأسيس حزب الوفد المصرى وغيره ، ولم يدفع الى تأليفه رغبة في استقلال ولو ذاتيا ، ولكنه كان من تأليف واخراج الحكام الانجليز انفسهم ، ومن ثم صار الحزب في سنواته الاولى يعلن الولاء التام للحكومة البريطانية (٣٢) .

وبتأليف حزب المؤتمر ادرك السيد « احمد خان » المؤامرة الانجليزية الهندوسية على المسلمين فحذر المسلمين من عواقبها وطلب اليهم عدم التعاون مع حزب المؤتمر ، وانصاع المسلمون الى اقوال السيد احمد خان وابتعدوا عن حزب المؤتمر ، ولكن الحكومة البريطانية استمرت في تدعيم الحزب وطلبت الى القائمين عليه ان يستمروا في اعمالهم (٣٣) .

وحرص الانجليز على ان يضموا الى حزب المؤتمر ممثلين للمسلمين حتى يأخذ الصبغة العامة للبلاد وسكانها ، وان كان هذا قد لقي معارضة شديدة من جانب من المسلمين ، في الوقت الذى لقي فيه تأييدا من جانب آخر منهم ، وكان رئيس الجلسة الاولى التى عقدت في « بومباى » السيد

(٣١) عبد المتعال الصعدي : المرجع السابق ص ٤٨٤ .

(٣٢) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣٣) احسان حقى : مرجع سبق ذكره ص ١٦٠ .

«رحمة الله» أحد التجار المسلمين المعروفين في بومباي مع السيد «بونارجي» الهندوسي (٣٤) . وبدعم من السلطات الانجليزية اتخذ الهندوس موقفا عدائيا من المسلمين مما جعل السيد/احمد خان يدرك ان الحضارة الاسلامية والحضارة الهندوسية حضارتان متنافرتان ، هذا فضلا عن اختلاف اللغة والتقاليد ، فرفض ان يشترك المسلمون في اى تمثيل نيابى للهند ، وقال في ذلك : في بلد كالهند تنقسمه الطبقات وتنوشه النزعات الدينية المتفرقة الحادة وليس فيه من اسباب التربية والادراك الصحيح ما يدفع الناس الى الايمان بالمساواة والعدالة في الحقوق والواجبات ، ارى بل اومن ان الانتخاب والتمثيل النيابى ضار اكثر منه نافع (٣٥) .

وانطلاقا من هذه الدعوة فقد دعا المسلمين الى عقد مؤتمر يضم ممثلى المسلمين في كافة الاقاليم الهندية المختلفة ، فوضع بذلك الاساس الذى قامت عليه الرابطة الاسلامية التى قادت الحركة الاستقلالية لدولة باكستان، كما دعا المسلمين الى نبذ جمود العلماء والعمل على تكوين جيل جديد في الهند يجمع بين الثقافتين الاسلامية والاوروبية ، والنهوض بكل نواحي حياة المسلمين في الهند في دينهم ودياناتهم . وتوفى عام ١٣١٦ هـ الموافق ١٨٩٨ م بعد ان وضع في الهند اول بذرة في الاصلاح الحديث (٣٦) ، ولا يقلل من جهوده اتهامه بمسألة الانجليز ، او قيامه بتفسير القرآن الكريم تفسيراً غير مألوف عند علماء المسلمين في عصره .

وفي عام ١٩٠٥ م أعلن نائب امك في حكم الهند اللورد « كيرزن » ان بلاد البنغال كبيرة جدا على حاكم واحد فقسمها الى ولايتين ، وقد استنكر الهندوس هذا التقسيم الذى اعطى المسلمين الولاية التى اكثريتها مسلمة ، وان هذا العمل يضعف روح الوطنية الهندية لا سيما وان البنغال هى اقوى مركز لحزب المؤتمر ، كما ان هذا العمل يجعل المسلمين والطبقات الدنيا تشارك الهندوس في وظائف الدولة (٣٧) .

وفي مقابل ثورة الهندوس فرح المسلمون بقرار التقسيم للبنغال

(٣٤) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٥٣ - ٥٤ .

(٣٥) عباس محمود العقاد : محمد على جناح ص ٤٥ . دار الهلال .

(٣٦) عبد المتعال الصعيدي : مرجع سبق ذكره ص ٤٨٥ .

(٣٧) احسان حقى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

وأسسوا عام ١٩٠٦ م حزب الرابطة الاسلامية الذي نادى بكفالة حقوق المسلمين وحماية حقوقهم السياسية والادارية ومن ثم كان قيامه البداية الحقيقية للحركة القومية التي سار فيها مسلمو الهند وجاء تأسيس هذا الحزب في اجتماع عقده ممثلو المسلمين في مدينة « داکا » في ذلك العام - ١٩٠٦ م - وانتخب « اغاخان » اول رئيس له . وظل كذلك حتى عام ١٩١٢ م (٣٨) . انطلاقا من ان « اغاخان » ترأس وفد المسلمين الذي قابل نائب الملك وقدم له عرائض بمطالب الهند الداعية الى اجراء انتخابات على الطريقة الطائفية بحيث يكون للمسلمين حق انتخاب ممثليهم المسلمين ولا يشتركون في الانتخاب العام .

وكانت حكومة الهند قد لجأت الى تقسيم البنغال ارضاء للمسلمين ومنعا للاحتكاك بينهم وبين الهندوس الا ان غضب الهندوس لهذا القرار لم يجاوز حد فثارت ثائرتهم ، هذا مع العلم بأن حكومة الهند استندت في اصدار هذا القرار الى ان المسلمين مازالوا حتى ذلك الوقت يملكون من الارض في شبه القارة الهندية اكثر مما يملك الهندوس وان عددهم في الجيش اوفر من عدد الهندوس (٣٩) . ومع ذلك بدأت المعارك الطائفية على اشدها بين الفريقين حتى دفعت المعتدلين من المسلمين الى التخلي عن عزلتهم والنزول الى ميدان المعركة . فأخذوا يطالبون بتمثيل المسلمين في ادارة البلاد كطائفة لها كيائها وذاتيتها الخاصة .

وقد ساعد على حدوث المعارك الطائفية في الهند روح الحقد والكراهية للمسلمين التي نفخها في الهندوس زعيم منهم يدعى « بال كنداهاار تيلاك » الذي دعى بأبى الاضطراب الهندي وكان تيلاك هذا وهو برهمي كان روح الحركة وعرقها النابض ولسانها الناطق نال حظا وافرا من التهذيب والعلوم الغربية ، وكان عدوا شديدا للحكم البريطاني والحضارة الاوروبية ، وداعيا عظيما يتسلط على القلوب فتنقاد اليه ، وكانت صحيفته المسماة « ياكنتار » في « كلكتا » تحمل الشعب على الهياج والاغتيال والثورة (٤٠) .

ونتيجة لضغط الهندوس تراجعت الحكومة الانجليزية عن قرار تقسيم

(٣٨) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٧٣ .

(٣٩) د. احسان حقى : المرجع السابق ص ١٦٦ .

(٤٠) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ١٨٧ .

البنغال ، واعلنت في يناير ١٩١١ م توحيد البنغال تحت ادارة موظف كبير برتبة حاكم ، وايجاد ولاية باسم «بهارواريسة» يديرها موظف برتبة نائب حاكم ، واعادة فصل اسام عن البنغال تحت امرة موظف برتبة محافظ ، ونقل العاصمة من «كلكتا» الى «دهلى» (٤١) فاهتزت افئدة المسلمين هلعاً لهذا القرار ، ورأى حزب الرابطة الاسلامية ان يطالب بحكومة ذاتية للهند .

وشهدت السنوات التالية من سنى الحرب العالمية الاولى تعاوناً بين حزب المؤتمر وحزب الرابطة الاسلامية في الهند لوضع قواعد الحكم الذاتى ، وكانت العلامة الكبرى من علامات سمو النهضة الهندية هو جنوح جانب من الراى الاسلامى العام الى الاخذ بنصرة الحركة الوطنية ، ولكن دون الاشتراك في ايقاد الفتن والعبث بالامن ، وكان ذلك الانضمام منهم من بعد ما قطع لهم معتدلة الهندوس الوعود والعهود واكدوا لهم وقوفهم الى جانبهم موقف الصديق الصفى (٤٢) .

ونتيجة للتعاون بين المسلمين والهندوس في اطار حركة وطنية هندية واحدة اثناء سنوات الحرب العالمية الاولى ظهور ما عرف باسم « ميثاق لنكاو » (٤٣) عام ١٩١٦ م الذى حدد اهداف الحركة الاستقلالية في الهند واعترف للمسلمين بحق التمثيل الطائفى في الانتخابات النيابية ، فحلت بذلك مشكلة من اعقد المشكلات التى واجهت تعاون الهندوس والمسلمين ، غير ان الاشتباكات الطائفية تجددت في العام التالى فعكرت الصفاءالذى ساعدالات الفريقين (مؤتمر « لنكاو » وبدا ان قيام اتحاد بين المسلمين والهندوس ضرب من المستحيل .

وفي الوقت الذى كان فيه المسلمون يخلصون لتحالفهم مع الهندوس ويعادون بذلك الحكومة الانجليزية ، كان الهندوس يتقربون من الانجليز سرا ويوالونهم ويحرضونهم على المسلمين فصار المسلمون بعد ان كانوا امام عدو واحد هو الهندوس امام عدوين هم الهندوس والانجليز ، (٤٤) . ونتج عن ذلك اضطهاد لزعماء المسلمين من جانب الحكومة البريطانية ونفى

-
- (٤١) د. احسان حقى : المرجع السابق ص ١٦٩ .
(٤٢) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ١٩١ .
(٤٣) لنكاو اسم بلدة تقع في البنجاب عقد فيها المؤتمر .
(٤٤) د. احسان حقى : المرجع السابق ص ١٧٠ .

لاهم الزعامات الاسلامية امثال « مولانا محمود الحسن » الذى لقب « بشيخ الهند » والذى خرجت البلاد كلها لاستقباله حين عودته من منفاه عام ١٩٢٠ م - وكان غاندى الزعيم الهندوسي ممن خرج لاستقباله - وهو في مستهل حياته السياسية ، والذى عاد من منفاه ليعلم حركة المقاطعة ضد الانجليز ويدعو لترك مدارسهم وترك جامعة «عليكرة» التى اصبحت وكرا لهم ، وانشاء جامعة اسلامية جديدة ، كانت هى «الجامعة المليية الاسلامية» العظيمة الشأن الآن في نيودلهى ، ويدعو كذلك لرد الالقاب اليهم وترك التعامل معهم عملا بالمبدأ الاسلامى الذى اعلنته هذه الآلة الكريمة : يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء (٤٥) .

وبنهاية الحرب العالمية الاولى حاولت انجلترا اعطاء الهند حكما ذاتيا « Home Rule » يقوم على تقسيم السلطة في الهند بين مستشارين تعينهم السلطة التنفيذية البريطانية ، وبين وزراء تنتخبهم الهيئات الانتخابية التشريعية ، وعلى هذا الشكل والنظام تتكون الحكومة المركزية في العاصمة وحكومات الاقاليم ، اما الهيئة التشريعية فينتخب اعضاؤها انتخابا على نطاق اوسع مما كان سابقا ، وتصبح لها سلطات اكثر من صفتها الاستشارية وأن ظلت الشؤون المالية غير خاضعة لهذه الهيئة التشريعية ، وان هذا النظام وسيلة يتم بها انتقال السلطة من الحكومة البريطانية الى الحكومة الوطنية (٤٦) .

ومنذ ان اعلن عن هذا المشروع البريطانى للحكم الذاتى في يوليو ١٩١٨ م ، اخذت الاعتراضات والمظاهرات بل والثورات تتوالى على الهند استنكارا وخاصة الاحزاب الاسلامية والطوائف الهندوسية الدنيا التى خشيت من ان تضع حقوقهم في ظل السيطرة الهندوسية المتطرفة ، ورغبة منها في حمل الحكومة البريطانية على توسيع نطاق الحكم الذاتى ، ومع ذلك اقر البرلمان البريطانى المشروع في ربيع عام ١٩١٩ م - مما نتج عنه مصادمات دامية بين الجنود الانجليز والشوار الهندود ، وعندما غلبت القوة البريطانية لجأ الهندود الى ما عرف بسياسة « اللاتعاون » او « العصيان المدنى » او « المقاومة السلبية » ، والتى نسبت الى الزعيم

(٤٥) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٧٩ - ٨٠ .

(٤٦) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ١٩٣ .

الهندي غاندى لتحرير البلاد من سيطرة الإستعمار منذ عام ١٩٢١ م حتى استقلت الهند سنة ١٩٤٧ م . والذي يعتبر بحق باعث حركة « اللاعنف » او ضبط النفس وعدم استعمال القوة في الحصول على الحق (٤٧) .

وفي مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد بلندن في نوفمبر ١٩٣٠ م طالب المسلمون بوجوب النص في الدستور على كفالة حقوقهم ، الا ان غاندى ورفاقه من اعضاء حزب المؤتمر تمسكوا بمبدأ استقلال الهند على اساس الوحدة ورفضوا منح المسلمين اية ضمانات من نوع معين ، وبينما كانت اجتماعات المائدة المستديرة تعقد بلندن ورجال حزب المؤتمر يطالبون بوحدة الهند المستقلة دون ما اعتبار للفوارق الطائفية وقف الدكتور محمد اقبال في اجتماع حزب الرابطة الاسلامية السنوى في « الله اباد » وطالب بقيام دولة اسلامية في الهند ، ومما جاء في خطابه ذلك قوله : ليست المجتمعات الهندية كالمجتمعات الاوروبية، فالهند قارة عظيمة تضم اشتاتا من العناصر والطوائف تباينت اديانها وتعددت لغاتها واختلفت تقاليدها ، فلا يمكن للديموقراطية الاوروبية ان تطبق في الهند من غير ان يسبقها اعتراف بكيان هذه المجتمعات الطائفية ، فاذا طالب المسلمون في الهند بتأسيس دولة فان لمطلبهم ما يبرره ، وبودى ان ارى البنجاب واقليم الحدود الشمالية الغربية والسند وبلوخستان وقد ضمتها دولة واحدة .

ومع ان اقبال نادى بهذه الدعوة لقيام دولة اسلامية في الهند وهو رئيس لحزب الرابطة الاسلامية في عام ١٩٣٠ م ، الا ان هذه الفكرة لم يوافق عليها الحزب ولم يتخذها مبدءا له الا عام ١٩٤٠ م ، اثناء انعقاد دورته التاريخية في « لاهور » ذلك العام بعد ان توفى اقبال بعامين ، وصار « محمد على جناح » قائدا لحزب الرابطة الاسلامية ومدافعا عن قيام « الباكستان » ، وذلك على الرغم من انه كان في بداية حياته السياسية من انصار الوحدة والتعاون بين المسلمين والهندوس ، وقد غيرت التجارب القاسية من تفكيره واتجاهه فآمن بالتقسيم وسار في ايمانه الجديد لا يتراجع ولا يلين حتى كان قيام دولة الباكستان على يديه .

صارت عقيدة مائة مليون مسلم في الهند اقامة دولة الباكستان ، ومن ثم وجدنا اصرار القائد والحزب في مؤتمر « سمل » الذى دعا اليه نائب الملك

(٤٧) د. عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٨٥ - ٨٦ .

اللورد ويفل عام ١٩٤٥ على ضرورة قيام الباكستان . فعمدت الحكومة البريطانية الى اجراء الانتخابات في الهند التي انتهت بفوز ساحق لحزب رابطة العالم الاسلامى ووجهة نظرها في التقسيم . اذ احرز كل المقاعد المخصصة للمسلمين في المجلس المركزى و٦٦ مقعدا من ٩٥ مقعدا في المجالس المخصصة لهم ، وكذلك اسفرت عن فوز حزب المؤتمر في دوائر الهندوس . وكانت الحكومة البريطانية عازمة على منح الهند استقلالها . واصبح حزب الرابطة الاسلامية وحزب المؤتمر وارثى السلطة في الهند (٤٧) . ومن ثم يبدأ الصراع .

وقد بذلت محاولات عديدة في اعقاب الحرب العالمية الثانية للتوفيق بين حزبى الرابطة الاسلامية والمؤتمر باءت كلها بالفشل حتى استنفذت بريطانيا كل محاولاتها ولم تجد بدا من قبول الامر الواقع ، فأعلنت في ٣ يونيو ١٩٤٧ قبول فكرة تأسيس الباكستان . وفي منتصف اغسطس من نفس العام اعلن قيام دولة الباكستان بعد التقسيم . فظهرت الى الوجود مرة اخرى اكبر دولة اسلامية في العالم هى دولة الباكستان الاسلامية .

ومما تجب ملاحظته ان فكرة دولة اسلامية في الهند لم تبلور عند المسلمين فقط ، بل وعند الهندوس كذلك بعد ان راوا استحالة الوصول الى حل اذا لم يرضوا المسلمين ، ولذلك فقد وضع « كريشنا مينون » وهو الهندى الوحيد الذى كان في حاشية نائب الملك . برنامجا يقضي بايجاد باكستان قبله نهرو زعيم حزب المؤتمر (٤٨) . كما ان قيام الباكستان له وجوده التاريخى الذى يؤيده والذى امتد قرونا من الزمان تأصل فيها بناء الدولة الاسلامية الكبرى في الهند وانتشار الاسلام في شبه القارة الواسعة ، وقبل ان تقوم الباكستان على اساس دينى فانها تستمد كيانها القومى من هذا الوجود التاريخى القديم . وقد تركزت العناصر الاسلامية في المناطق الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من الهند ، وهم في هذه المناطق يكونون الكثرة التى تؤكد وحدتهم وتؤيد قيام دولتهم ، بينما ينتشر الهندوس في هضبة الدكن وفي المناطق الشمالية الوسطى .

والتعصب الهندوسى لا يقوم على العقيدة والايمان قدر ما يقوم على

(٤٧) محمد عطا و د. عبد الحميد البطريق : باكستان في ماضيها وحاضرها ص ٥٦ .

(٤٨) د. احسان حقى : المرجع السابق ص ١٧٣ .

اختلاف الطوائع والعقائد فهو لذلك متجدد دائم باق ما دام تباين العقيدة وبقى تباين الطقوس والمقدسات الدينية، فذبح المسلمين للبقرة كفيل بوقوع المذابح بين الطائفتين ما بقى الهندوس يقدسون البقرة ، فقيام باكستان ضرورة واقع التاريخ وواقع لمصلحة والعدالة لمائة مليون مسلم .

ونتساءل كيف تم تنفيذ قرار التقسيم واعنى قيام دولة باكستان الاسلامية ؟

عندما اذاع زعماء الطوائف الثلاثة الكبرى في الهند : « جواهر لال نهرو » ممثل الهندوس وزعيم حزب المؤتمر ، و « محمد علي جناح » ممثل المسلمين ورئيس حزب الرابطة الاسلامية ، « والسردار بالديف سنج » ممثل السيخ ، على سكان شبه القارة الهندية مشروع التقسيم في ٣ يونيو ١٩٤٧ . واوصوا اتباعهم بقبوله لم يخف كل من « البانديت جواهر لال نهرو » والسردار بالديف سنج خيبة املهما في المشروع (٤٩) . واشترط حزب المؤتمر ان تقسم كل من البنغال والبنجاب حسب كثرة سكانها من المسلمين والهندوس ، واستجاب محمد علي جناح لهذا الشرط حسما لامتناد النزاع مع ان فيه بعض الغبن على المسلمين لان المنطق كان يقضي بضم الولاية كلها باعتبار اغلب سكانها (٥٠) .

وعلى هذا فقد اخذ الهندوس بلادا اكثرية سكانها من المسلمين واخذوا رؤوس انهار تجعل رى باكستان تحت رحمتهم واخذوا معابر طرق داخل الارض الباكستانية تجعل باكستان في متناول ايديهم ، وتحول دون الباكستانيين ودون الهند ، كما انهم استولوا على ولاية « كوردا سبورا » شرق البنجاب لكى يسهل عليهم الاتصال مباشرة بأمانة « جمو وكشمير » وهذا يعنى ان المسلمين اعطوا بلادا مبتورة مفككة الاوصال محرمة من وسائل العيش وصارت باكستان باكستانيين : شرقية في البنغال ، غربية في شمال غرب شبه القارة الهندية (٥١) .

(٤٩) عبد القادر خان ترجمة ابراهيم نوار : مأساة كشمير ص ٦ .

(٥٠) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٥١) احسان حقى : المرجع السابق ص ١٨٥ .

وكلمة باكستان من وحى الشاعر العظيم محمد اقبال ومعناها «ارض الطهر» وترمز الكلمة الى الولايات الإسلامية في الهند . فالباء من بنجاب والألف من الباتان والكاف من كشمير والسين من السند واما كلمة «ستان» فمعناها دولة . وتكونت باكستان من قسمين شرقي هو البنغال وعدد سكانه نحو اثنين واربعين مليوناً . وغربي وهو ولايات الحدود الشمالية الغربية . « وبلوخستان » و « السند » و « البنجاب الغربية » وعدد سكانها كلها نحو ٣٣ مليوناً (١٥٢) . ويفصل بين القسمين محيط من الارض الهندية يبلغ في اقصر مدى له ١٢٠٠ ميل .

وتتكون باكستان الشرقية-بنجلاديش حالياً-من اقليم شرقي البنغال وتبلغ مساحتها حوالي ٥٥ الف ميل مربع وعدد سكانها آنذاك كما اثرتنا ٤٢ مليوناً ، فهي بهذا من اشد بقاع العالم ازدحاما بالسكان ، اذ يبلغ متوسط كثافة السكان في الميل المربع ٧٧٧ نسمة ويروها نهر الكنج وروافده . واما باكستان الغربية فتتكون كما ذكرنا من السند والبنجاب الغربية الى جانب اقليم الحدود الشمالية الغربية وبلوخستان واقليم العاصمة الادارى حول كراتشي وعدد من الامارات اكبرها اماره « بهاولبور » ، وتبلغ مساحة باكستان الغربية حوالي ٣١٠ الف ميل مربع يعيش عليها حوالي ٣٣ مليوناً من السكان، فهي بذلك اقل سكانا واقل كثافة في نسبة السكان للميل المربع من باكستان الشرقية وتجرى فيها خمسة انهار هي السند وروافده الاربعة وتنبع جميعا من كشمير (٥٣) .

وعندما أعلن التقسيم يادر الهندوس الى الاعتداء على المسلمين في الولايات التي صارت جزءا من دولة الهند ، واتخذ الاعتداء صورا وحشية حتى اضطر المسلمون الى الفرار من الهند والهجرة الى الاراضي الباكستانية مخلفين وراءهم اموالهم وديارهم ، فكانت هجرة لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، اذ انتقل في بضعة شهور نحو عشرة ملايين مسلم من الهند الى باكستان، فكان وجود هذه الملايين من اللاجئين الى باكستان نكبة على نكبتها . ولكن الباكستانيين استقبلوا اخوانهم بكل ترحاب وفتحوا لهم صدورهم وآووههم واندمجوا بهم واصبحوا شعبا واحدا (٥٤) .

(٥٢) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٥٣) د. حسين فوزى النجار : مع الاحداث في الشرق الاوسط ص ٦٣

(٥٤) احسان حقى : المرجع السابق ص ١٨٧ .

وقد نتج عن التقسيم عدة مشكلات ، ذلك انه كان اثناء الحكم البريطاني للهند ما يعرف بالهند البريطانية بمقاطعاتها الثمانية ، وما يعرف بهند الامراء . وفي هند الامراء كانت هناك أكثر من ٦٠٠ امارة كبيرة وصغيرة ، يحكمها امراء كبار وصغار حسب اهمية اماراتهم ، وكانوا يحكمونها حكما مطلقا يستمد بعضهم سلطته من نائب الملك راسا وهم الامراء الكبار وعددهم ٣٣ اميرا منهم مسلمون وهندوس ، والباقي من الامراء يستمدون سلطتهم من الحاكم للولاية التي بجوارهم . وكان الامير الهندوسي يعطى لقب «مهراجا» والامير المسلم لقب «نواب» (٥٥) .

وكان من الامارات الكبرى امارة «حيدر اباد» التي تبلغ مساحتها ٨٢ الف ميل مربع وعدد سكانها ١٦ مليون نسمة وتقع في جنوب الهند وسط ولايات «بومباي» و «مدراس» و «واوريسا الهندية» ، ومعظم سكانها من غير المسلمين ، بينما كان عدد المسلمين حوالى المليونين بينما كان حاكمها مسلما وأراد ان يبقى مستقلا على ان ينظم علاقته مع حكومة الهند حسب القرار المتفق عليه حين اعلان استقلال الهند ، ولكن الجيش الهندي زحف على الولاية وضمها الهند الى ولاياتها نهائيا في سبتمبر ١٩٤٨ م (٥٦) .

وكانت الامارة الكبرى الاخرى هي امارة كشمير التي كانت على العكس من امارة حيدر اباد اذ كان يحكمها امير هندوسي هو « المهراجا دوجرا » بينما اغلبيه سكانها مسلمون ، وقد اختارت الاستقلال عن كل من الهند والباكستان وأعطى لحاكمها - وليس لشعبها - الحق في الانضمام الى اى من الدولتين ، ولكن الهند ضمتها بالقوة ايضا كما ضمت من قبل امارة حيدر اباد ، ولكن هذا العمل من جانب الهند قد اثار استياء باكستان وصارت مشكلة دولية تهدد بالحرب بين الدولتين .

وعند التقسيم بين الهند والباكستان انضم عدد قليل من الامارات الهندية الى باكستان وهى : آمب ، بها ولبور ، شترال ، دير ، قلات ، خيربور ، خاران ، لا سبيلا ، مانافادر ، مكران ، صوات ، جوناكاد . اما بقية الستمائة امارة فقد انضمت الى الهند .

(٥٥) عبد المنعم النمر : المرجع السابق ص ٢١٤ .

(٥٦) نفس المرجع ص ٢٨٨

ولم تنته مشكلات الباكستان بقيامها اذ ان اختلاف عنصرى الباكستانيين بين البنغاليين في باكستان الشرقية ، والبنجابيين في الغرب قد ادى الى مشكلات بين الاشقاء المسلمين في الدولة الواحدة ، ومن هنا لعبت الهند دورا في انقسام الباكستان الى دولتين . ذلك ان الخلاف بين الهند والباكستان كان غنيا ، فالباكستان دخلت في احلاف عسكرية مع الولايات المتحدة الامريكية وبقية الدول الغربية (مثل حلف جنوب شرق آسيا والحلف المركزى بغداد سابقا) ، بينما اتبعت الهند سياسة الحياد الايجابى وعدم الانحياز ، وانهزت الهند فرصة الصراع بين اقليم شرق الباكستان (وهم من البنغاليين الذين لهم اخوة في الجنس مع الهندوس في الهند) ، واقليم غرب الباكستان الذى تركزت فيه العاصمة والرئاسة ومعظم الوظائف الكبرى رغم قلة عدد سكانه بالنسبة للاقليم الشرقى .

وانتهزت الهند فرصة هجرة الكثير من باكستان الشرقية الى اراضيها ودخلت الى جانب هذا الاقليم الشرقى في حرب عام ١٩٧١ م ضد الباكستان انتهت بانفصال باكستان الشرقية التى اصبحت تعرف باسم جمهورية بنجلاديش الاسلامية كدولة مستقلة، وحدث تعديل في الحكومة الباكستانية بما يجعلها اكثر ادراكا للواقع ، وظهر السيد ذو الفقار على بوتو زعيم حزب الشعب كرئيس للحكومة الباكستانية الجديدة التى اقرت بالامر الواقع واعترفت بانفصال الاقليم الشرقى بل واعترفت بقيام بنجلاديش بزعامة الشيخ مجيب الرحمن رئيس حزب رابطة عوامى .

ولنا سؤال آخر ؟ هل انقسام شبه القارة الهندية الى دولتين بقيام دولة الباكستان الاسلامية - والتى انقسمت بدورها فيما بعد الى دولتين اسلاميتين - كان له ما يبرره ؟ من سياق التاريخ الذى رايناه منذ نزل الانجليز على ارض شبه القارة الهندية ظهر بوضوح ان السياسة البريطانية عملت على التفريق بين ابناء الوطن الواحد ، ورغم تسامح المسلمين الا ان تعصب البعض منهم وجود افكارهم جعلهم اعداء طبيعيين للهندوس ، كما ان عدم تقبل الهندوس لبعض التعاليم الاسلامية التى يقوم بها المسلمون الى جانب تعصبهم الاعمى لافكارهم ومعتقداتهم جعلهم اعداء طبيعيين كذلك للمسلمين ، ومن ثم كان من الضرورى ظهور الباكستان ، وان كان ما زال يوجد داخل الهند ذاتها حوالى ٤٠ مليون مسلم فضلوا البقاء على الارض الهندية ولم يهاجروا الى الباكستان ، وهؤلاء يتحملون الى اليوم اعتداءات متكررة من جانب الهندوس .

ثانيا : تحرير اندونيسيا

تتكون اندونيسيا من مجموعة من الجزر والارخبيلات اكبرها جاوة وتمتد من سومطرة الى غينية الجديدة ، ومن الغرب الى الشرق على امتداد خمسة آلاف من الكيلو مترات ، وكانت مركز الامبراطورية الهولندية الاستعمارية الكبرى فيما وراء البحار (٥٧) . وهذه الجزر عرفت الاسلام في اواسط القرن الثامن للهجرة او القرن الرابع عشر للميلاد ، وقد بلغ عدد سكانها من المسلمين في احصاء عام ١٩٣٠م الذي اجرته هولندا ٦٤ مليون نسمة (٥٨) .

وجاء دخول الاسلام الى هذه الجزر عن طريق التجار المسلمين الذين وفدوا اليها قادمين من الهند وعن طريق التعامل والاختلاط مال سكان تلك الجزر الى اعتناق الدين الاسلامي بأسلوب سلمى وبدون ادنى ضغط او قهر ، وجاء انتشار الاسلام في « جاوة » اسبق من بقية الجزر ، ومن ثم اتخذ الاسلام من « جاوة » مركزا للانتشار الى بقية الجزر الاخرى حيث امتد ليشمل « سومطرة » والى قسم من « بورنيو » و « سيليب » ، والجزر التي في الشرق منها ، والمتصفح لرحلات ابن بطوطة الرحالة العربي المشهور يقرأ له مدحا وثناء على ملك سومطرة المسلم في القرن الرابع عشر الميلادي لان هذا الملك جاهد الكفار الوثنيين ونشر الاسلام بينهم (٥٩) .

وصار للعرب المسلمين في جزر اندونيسيا سلاطين وامراء ، وصار للعرب معرفة تامة بالجزر وبخيراتهما ، وحيث كانوا اكثر حضارة من سكانها فقد صاروا في مراكز مرموقة بين الناس استندت كذلك على خبراتهم بأمور التجارة والملاحة في البحار والادارة ، ومن الجدير بالذكر ان علاقات العرب التجارية بسكان تلك الجزر لم تكن مهما كثرت واتسعت لتكفي في نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والادبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات زاخرة العمران ، بل كانت معهم قوة اعظم من هذه وهي قوة العقيدة المحمدية التي هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام (٦٠) .

(٥٧) بير رنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ص ٧٧٧ .

(٥٨) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٥٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة من طنجة الى الصين . ص ٢٨٥ .

(٦٠) لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

ويقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام الى جزر اندونيسيا بخمسة قرون ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي الى ان انتهى باحتلال الهولنديين لها في القرن السابع عشر ، ولم يؤسس العرب في تلك الجزر دولة او سلطنة موحدة وان كانوا قد نجحوا في اقامة اسس وحدة اسلامية تبقى ما بقي الانسان على تلك الارض ولا تسقط امام عدوان اوروبي او غيره . ولعل وجود الجزر متباعدة كان من العوامل التي لم تمكن العرب من اقامة دولة موحدة فيها . ومما تجب ملاحظته ان معظم العرب الوافدين الى تلك الجزر كانوا من حضرموت بجنوب الجزيرة العربية . وهؤلاء مشهود لهم بالمثابرة والخبرة الملاحية والتجارة والادارية الى جانب تمسكهم بالاسلام وحسن معاملتهم لشعوب تلك الجزر .

واكبر تلك الجزر هي جاوة التي تبلغ مساحتها ٥٠٠ ١٣١ كم^٢، وان كانت بورنيو اكبر منها بل اكبر جزيرة في الكرة الارضية بعد جزيرة غينية الجديدة، اذ ان مساحتها ٧٤٦٠٠٠ كم^٢ ولكنها قسمت بين هولندا وانجلترا وقد دخل الاسلام الى بورنيو في القرن السادس عشر الميلادي وصار لها سلطان مسلم اواخر ذلك القرن ، وظلت تحافظ على استقلالها امام البرتغال والاسبان والانجليز والهولنديين حتى اواسط القرن الثامن عشر .

وثالث الجزر من حيث العظمة والاتساع هي جزيرة سيلاب Célèbes المعروفة احيانا باسم « سيليبيس » - ومساحتها حوالي ٢٢٢٨ كم^٢ وقد انتشر الاسلام اليها اواخر القرن السادس عشر . ومع بداية القرن السابع عشر تنافس الهولنديون والانجليز والدنمركيون مع البرتغاليين في الفوز بمحاصيل هذه الجزيرة من البهارات والفلفل والقرنفل وغيرها مما تشتهر هذه الجزيرة بانتاجه . حتى انتهى الامر بنزول الهولنديين الى الجزيرة وبسط سيطرتهم عليها اعتبارا من عام ١٦٦٧ م .

وتعتبر جزيرة سومطرة من اعظم الجزر في العالم ، ويفصلها عن بلاد الهند الصينية « بوغاز ملقا » وعن جاوة بوغاز « الصوند » ، ومساحتها ٤٣٠٠٠ كم^٢ ومعظم سكانها مسلمون . وخيراتها كثيرة سواء كانت زراعية او معدنية ، وسكانها خليط من العرب والهنود والماليزيين والصينيين ، وقد خضعت هذه الجزيرة ايضا للسيطرة الهولندية .

وفي ظل الاستعمار الهولندي كانت الدولة تهدف منذ عام ١٨٣٠ الى انشاء مزارع تنتج تحت اشراف الاوروبيين المواد الغذائية والمواد الاولية

اللازمة للتصدير مثل سكر القصب والقهوة والكاكاو وزيت النخيل والمطاط ، في الوقت الذي عملت فيه مزارع الوطنيين بشكل خاص على الانتاج من اجل الاستهلاك المحلي فانتجت الارز والفول السوداني ، وكانت الدولة وبصفتها المالكة لموارد ما تحت الارض تمارس اما الاستغلال المباشر واما منح عقود امتيازات طويلة الاجل ، ومن ثم ازدهر انتاج تلك الجزر ولكنه لم يكن ذا فائدة كبرى الا للاوروبيين ، وفي بعض الحالات بالنسبة للمهاجرين الصينيين ، واستمرت جماهير الشعب الاندونيسي ، ونسبتهم حوالى ٩٥٪ تعيش داخل النطاق التقليدى للاقتصاد المحلى (٦١) .

ورغم السيطرة الهولندية فان المسلمين الاندونيسيين استمروا ينشرون الاسلام بين الوثنيين من سكان الجزر والوافدين عليها ، وقد سبب ذلك ضيقا من جانب جمعيات التبشير الهولندية التى اخذت تضغط على الحكومة الهولندية لتوقف حركة انتشار الاسلام ، بل ولتضع العراقيل امام المسلمين الراغبين في الحج الى بيت الله الحرام ، ومحاولة قطع اثر الحضارة الاسلامية الزاهرة والوافدة من مصر وجزيرة العرب حيث ان مسلمى تلك الجزيرة يقلدون في ديانتهم وعاداتهم مسلمى مصر وحضرموت بل وبقية عرب الجزيرة العربية ، عاكفين على مطالعة التآليف التى تحرر في البلاد العربية ، وانه يجب في رأى الاستعمار الهولندى - وجود عاطفة قومية في تلك الجزر تناهض هذه النزعة الدينية العربية (٦٢) .

ولم تكن السيطرة الهولندية في جزر اندونيسيا مهددة بشكل واضح من الوطنيين ، وذلك لان الادارة الهولندية لم تقدم اية خدمات في مجال التعليم والادارة وغيرها لهؤلاء الوطنيين حتى اوائل القرن العشرين ، وان كانت تلك الادارة قد وقعت تحت ضغط الصينيين الذين يعيشون في تلك الجزر ويطالبون بمركز اكثر سموا من جماهير الاندونيسيين . وعندما سمح للوطنيين بالتعليم في مدارس الهولنديين ظهرت عام ١٩١١ م «جمعية صرخة الاسلام» والتى كانت مجرد رابطة للتجار ، جمعية سياسية طالبت بمشاركة المسلمين في الادارة ، ومع ذلك فان هذه المجموعة الاولى للمقاومة لم تطالب حتى ذلك الوقت بالتححر ، ولم تكن تمثل اى تهديد على وجود الاوروبيين (٦٣)

(٦١) بيررنوفان : المرجع السابق ص ٧٧٨ .

(٦٢) لوثروب ستودارد : المرجع السابق ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٦٣) بيررنوفان : المرجع السابق ص ٧٧٩ .

ويرجع فضل النهضة الوطنية في اندونيسيا الى يقظة المسلمين وتأسيس اول جماعة من جماعات الاصلاح باسم « شركة اسلام » وهى الجماعة التى انضوت اليها جماعات متعددة باسم « مسجومى » وهى كلمة مأخوذة من « مجلس سجورو مسلمين اندونيسية » Madjelis Sjure Muslimin Indonesia واكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار (٦٤) .

ويقدر عدد سكان اندونيسيا حاليا بحوالى ١٣٠ مليون نسمة ، فهى بهذا خامس دولة في العالم من ناحية عدد السكان ، والدول الاربع الاكثر سكانا هى على الترتيب : الصين ، والهند ، والاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة الامريكية ، ويؤلف المسلمون ٩٤٪ من مجموع السكان في اندونيسيا بينما يمثل المسيحيون ٣٪ من عدد السكان ، والهندوس والبوذيون معا يمثلون ٢٪ من عدد السكان ، ومعتنقو الديانات الاخرى يمثلون ١٪ من عدد السكان . مسلمو اندونيسيا هم من اهل السنة والجماعة (٦٥) .

وكان للجمعيات الاسلامية دور بارز في نشر التعليم لنشر المعرفة وابلاغ تعاليم الاسلام ومن هذه الجمعيات : الجمعية المحمدية ، وجمعية نهضة العلماء ، وشركة اسلام ، وجمعية الارشاد ، وديوان الدعوة الاسلامية والمنظمة الاسلامية الدولية ، الى جانب بعض الاحزاب الاسلامية مثل : الحزب الاسلامى الاندونيسى ، وحزب برتى الاسلامى ، بالإضافة الى الصحف الاسلامية ، وكل هذه المؤسسات تدعم الروح الاسلامية في نفوس اهل اندونيسيا .

(٦٤) عباس محمود العقاد : الاسلام في القرن العشرين ص ٨٦ -

(٦٥) د. محمد السيد غلاب : البلدان الاسلامية ص ٣٠١ .

الوحدة الإسلامية

تأثرت اقطار الوطن العربى والاقطار الاسيوية المجاورة بحركة ديناميكية في القرن السابع الميلادى هى ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، وهذه الحركة الاسلامية وما يتصل بها وما يمكن تسميته ايضا بالحركة العربية التى ظهرت بها قوة اللغة العربية التى رافقت الاسلام كدين في انتشاره السريع قد أثرت على المجتمعات التى انتشر بها من القرن السابع الميلادى حتى الوقت الحاضر ، وظهر تأثيرها في جميع نواحي حياة الانسان في ذلك الوقت .

وتعتبر حضارة الاقطار العربية والاسلامية خلاصة تفاعلات بين ثقافات واتجاهات واجناس وشعوب مختلفة تآلفت وامتزجت في ظل الخلافة الاسلامية التى ظهرت اولاً في شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الاسلام وانتشر في ايام الخلفاء الراشدين ، ثم في ظل دمشق عاصمة الامويين فبغداد عاصمة العالم الاسلامى في عصر الخلفاء العباسيين ، ثم في ظل القاهرة كعاصمة عربية للخلافة الاسلامية .

وتعتبر المرحلة الاولى لظهور الاسلام وانتشاره هامة نظراً لظهور عوامل اساسية ادت الى وحدة الثقافة الاسلامية لب الوحدة الاسلامية وجوهرها ، وهذه العوامل هى : -

١ - الوحدة الروحية التى جمعت الشعوب الاسلامية عربية وغير عربية .

٢ - ارتباط الدين بالسياسة ، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسي الى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين ، مما ساعد على ان يكون للدين الاسلامى اثر عميق في كل مرافق وميادين الحياة في انحاء العالم العربى والاسلامى .

٣ - شيوع مبادئ الاخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بين الناس دون النظر الى الجنس أو اللون ، وهذه المبادئ تستند الى الشرائع السماوية التى اتى بها الدين .

وقد انتشر الاسلام بمبادئه الروحية والاجتماعية والسياسية والفكرية خارج شبه الجزيرة العربية ووصل في انتشاره الى مختلف قارات الارض وقد اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى « تونازنى » على حدود الصين في عرض ما بين « فازان » من جهة الشمال وبين « سرنديب » تحت خط الاستواء اقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب (٦٦) . وكانت حركة انتشاره قوية نشطة في بدايتها حتى بدا كأن الاقطار التى انتشر بها تكون كتلة اسلامية متماسكة قوامها ان المسلمين مهما بعدت بينهم الديار التى يسكنونها وتباينت اللغات واختلفت الاجناس ، هم اصحاب وحدة في التوجيه واصحاب وحدة في اعتبار المصدر المقدس الاكبر - وهو القرآن الكريم - لواء يلتف المسلمون جميعا تحت رايته ، وهذا كله كفيل بتقوية اواصر الوحدة الروحية ، وبعث النهضة الاسلامية القوية الجديرة بالقيادة والتوجيه لخير الانسانية موجهة نحو بناء مجتمع قوى الدعائم متكامل الروابط في ظل الاخاء والسلام .

ولا يقلل من هذه الوحدة الاسلامية ما تقتضيه طبيعة التفكير واختلاف وجهات النظر في الاستنباط والتدليل . وما تمليه سنن الاجتماع من التسابق الذهنى في الوصول الى الحقائق العلمية . فهذا خلاف مرغوب يدل على الثروة الفكرية والعظمة الاسلامية التى حررت العقول وارهفت الافكار وشحذت الازدهان ولم تحبسها في حيز محدود أو نطاق محصور .

واجتهاد المجتهدين اورث الامة الاسلامية تراثا فكريا خالدا انتجته العبقريات التشريعية من أئمة المذاهب الاسلامية الكبرى ، وهذا التراث الفكرى يعتبر بحق موضع اعتزاز تفخر به الامة الاسلامية لانه يدل على رحابة الفكر وسعة الافق ، أما الامة الاسلامية - وان تعددت فيها المذاهب - امة واحدة بحكم ما اتفقت عليه من المواضع التى ربطت بينها

(٦٦) جمال الدين الافغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى ص ١٠٧ .

ولها مواضع تختلف فيها باختلاف العقول ، ووضوح الدلالات وتفسير المصالح والاحوال ، والامة بحكم ما اتفقت عليه أمة واحدة ، وبحكم ما اختلفت فيه مذاهب متعددة ، والمذهبية لا تخرج عن اعتبارهم لبنات من بناء الامة الاسلامية الواحدة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى : وان هذه ائمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون .

وبهذا يتضح ان الوحدة من الزم الفرائض الواجبة على الامة الاسلامية ، وان المسلمين متحتم عليهم ان يعيشوا دائما متضامنين ، وهم يد على من سواهم ، وان كياناتهم وبقاءهم متوقف على هذه الوحدة ، وعلى الاقل في الاهداف والغايات اذا اجيز التعدد في الوسائل بحسب ما تمليه مصالح الشعوب ، ومن اهم الاهداف ان تقف الامة الاسلامية كلها صفا واحدا امام الاعداء وعلى الامة الاسلامية ان توجد من الهيئات والمؤسسات ما يؤدي الى تحقيق غايات الدفاع والحماية والتنسيق بين سياساتها ، ويجب ان يكون واضحا ان الدولة الاسلامية اعم واشمل من الدولة السياسية ، لان الدولة الاسلامية ذات وظائف مادية وروحية في وقت واحد .

وازاء تطلع المسلمين الى وحدتهم بدأت الاتجاهات المعادية للوحدة الاسلامية تقوم بدور خطير لهدمها ، وحقيقة الامر ان الوحدة الاسلامية تعرضت لعوامل تفكك من الداخل وعوامل غزو من الخارج - كما سبق ان رأينا - اما عوامل التفكك الداخلي فقد تمثلت - كما هو معلوم - في قيام امارات ودويلات اسلامية هنا وهناك في انحاء الامة الاسلامية منسلخة من الكيان الاسلامي العام ، الى جانب ما اصاب المسلمين من جمود فكري وخلافات مذهبية وسياسية شديدة ابعدهم عن وحدتهم المتوارثة (٦٧) .

واما العوامل الخارجية المعادية للوحدة الاسلامية - وكما هو معلوم كذلك - فقد تمثلت في الغزوات المغولية والصليبية في العصور الوسطى للدولة الاسلامية ، ثم في الغزوات الاستعمارية الأوروبية في التاريخ الحديث والمعاصر ، فقد خضعت الاقطار الإسلامية على امتدادها ودون استثناء لاحتلال وسيطرة من جانب الدول الأوروبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصفة خاصة .

(٦٧) يمكن الاستزادة من هذا الموضوع من كتاب العروة الوثقى ص ١٠٩ - ١١٠ .

وممكن الخطورة في هذا الاستعمار الاوروبى هو ما ارتبط به من جهد بذله الاستعماريون لكى يحطموا الوحدة الاسلامية ، وقد نجح الاستعماريون في تمزيق وحدة العالم الاسلامى وتفريق شمله وما نشره من مذاهب فلسفية هدامة ، وما بثوه من اراجيف وشكوك حاولوا بها طمس معالم الاسلام ، وتشويه صحيفته وتبديد تراثه وتهوين اهدافه المثالية ومقوماته المعنوية . والخطر من ذلك هو موالة الحكام للاجنبى المخالف لهم في الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على ابناء ملتهم (٦٨) .

ولكن قىض الله للعروبة والاسلام رجالا مخلصين وقفوا مدافعين عن الاسلام والوحدة الاسلامية اعتبارا من القرن الثامن عشر الميلادى وما تلاه من قرون ، منهم زعماء الدعوات السلفية : محمد بن عبد الوهاب في نجد بشبه الجزيرة العربية ، ومحمد بن على السنوسى في برقة بليبيا ، ومحمد احمد المهدي في السودان ، الى جانب دعوة الجامعة الاسلامية التى تزعمها السيد جمال الدين الافغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده ، كما كان منهم زعماء الثورات والحركات الوطنية التى تصدت للاستعمار في انحاء العالم الاسلامى .

ومما هو جدير بالذكر ان فكرة الجامعة الاسلامية تدعو الى وحدة صفوف المسلمين وراء الدولة العثمانية ، وهذه هى العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، اى ان الافغانى كان يعمل الى جانب اصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية على صد النفوذ الاوروبى ، خاصة وانه كان يرد الاستعمار الاوروبى الى اساس دينى ويعتبره حركة نصرانية موجهة ضد الاسلام .

فحركة الجامعة الاسلامية اذن التى تبناها جمال الدين الافغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده حركة اسلامية عامة مجالها العالم الاسلامى كله وغايتها جمع المسلمين على كلمة سواء واقامتهم على مبدأ التحرر من قبضة المحتلين والمستبدين من المسلمين وغير المسلمين ، فالحركة وان لم تقم باسم الدين فانها كانت في صميمها دعوة تحريرية للعقل الاسلامى كله، وهى وان لم تقم كذلك في ظل عصبية القبيلة او الوطن فانها قامت في ظل العصبية الاسلامية في جميع الاقطار .

(٦٨) جمال الدين الافغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى ص ١١٠ .

وهكذا يمكن القول أن العالم الاسلامى كان يموج منذ اواخر القرن الثامن عشر بحركات دينية قوية جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب Westernization في الشرق الادنى وكرد فعل لاعتداءات الدول الأوروبية على بعض اجزاء العالم الاسلامى ، وكانت بعض هذه الحركات الدينية تتخذ موقفا سلبيا من الاستغراب وتنادى بالارتداد او الرجوع الى الاصول الاسلامية الاولى ، وهذه هى الدعوات السلفية التى اشرنا اليها ، الا ان الجامعة الاسلامية كانت اكثر ادراكا لمشكلات العالم الاسلامى .

وتنبع مشكلات العالم الاسلامى المعاصر من موقف هذا العالم من المذاهب والتيارات العالمية وتكتلها واطماعها في اقطار ذلك العالم ومحاولتها هدم الوحدة الاسلامية ومنع قيامها مرة اخرى ، فالمشكلة في واقع الامر هى مشكلة حضارية يعيشها العالم الاسلامى وسط المذاهب والتكتلات الدولية ، اذ ان اقطار العالم الاسلامى متخلفة عن الدول الأوروبية والأمريكية ، باعتبار الاقطار الاسلامية خضعت سنوات طويلة لعهود من السيطرة الاجنبية والاستغلال الأوروبي والعزلة المفروضة على نشاطها وحياتها في مختلف الميادين .

أن مجتمعنا الاسلامى حاليا يعاني من المشكلات مالم يعانيه في عصر من العصور الماضية ، وذلك راجع الى عدة عوامل نذكر أهمها على النحو التالى :

١ - اصطدام المجتمعات الاسلامية بالحضارة الغربية ونظمها وفلسفتها وأخلاقها التى تختلف في جوهرها عما ساد المجتمع الاسلامى من نظم وفلسفات وأخلاق وعادات .

٢ - تفكك المجتمع الاسلامى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا تفككا بصورة كبيرة نتج عنه شعور ابنائه بالحالة المتخلفة التى يعيشون فيها ، ورغبتهم في التخلص من هذا التخلف والسير في ركب الحضارة التى تسود العالم اليوم ، وكان من الطبيعى أن يشعر المتعلمون وحملة الفكر في هذا المجتمع الاسلامى بوظاة هذا التخلف والحاجة الى سلوك الوسائل المجدية للخلاص منه ، والتمسك بالوفاق والغلب اللذين هما عمادان قويان وركنان شديدان من اركان الديانة الاسلامية (٦٩) .

(٦٩) جمال الدين الافغانى ومحمد عبده : المرجع السابق ص ١١٦ .

وفي واقع الامر انقسم مفكرو العالم الاسلامى في معالجة مشكلات عالمهم الى ثلاث فئات هى :

أولاً : فئة لاتؤمن بصلاح ما فى يد الامة الاسلامية من تراث وعقيدة لحل هذه المشكلات ، فا توجهت الى الحضارة الغربية تنشد عندها الحل، وقد لسرفت هذه الفئة في هذا الاتجاه بحيث تخلت عن تفكيرها المستقل وعن شخصيتها المستقلة ، واستحسننت كل ما راته في الحضارة الغربية دون أن تدرك هذه الفئة الفوارق بين مجتمعنا الاسلامى والمجتمعات الغربية وأن ما يصلح لها ربما لا يصلح لنا .

ثانياً : وفئة تؤمن بأن في الاسلام حل هذه المشكلات ايماناً غيبياً ولكنها لا تعرف كيف يحلها ، وتظن أن من الممكن تطبيق الاسلام بنفس الاشكال التى طبقت في عصر الخلفاء الراشدين تماماً . وهؤلاء هم اكثر فقهاء الشريعة وعلمائها وهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الاسلامى المعاصر ، ويقفون منها دائماً موقفاً سلبياً ، بل اظهروا الاسلام امام خصومه بمظهر العاجز عن حل مشكلات المسلمين .

وقامت المعركة بين هؤلاء الفقهاء وبين أعضاء الفئة الاولى - وهم المتعلمون في الغرب والمتأثرون بالثقافة الغربية - وكان سلاح هؤلاء الفقهاء ضد الفئة الاولى هو الاتهام بالكفر والالحاد ، بينما رد عليهم أعضاء الفئة الاولى بأن هؤلاء الفقهاء رجعيون جامدون ، وكأن الجمهور الاسلامى بمجموعه وبطبيعة ايمانه واقتناعه بدينه مستعداً أن يصفى الى هؤلاء الفقهاء أكثر ، فأيدهم وسار وراءهم .

ولم يفعل أعضاء الفئة الثانية شيئاً من أجل اصلاح اجتماعى شامل، وكانت النتيجة ازدياد وطأة الحضارة الغربية على العالم الاسلامى ، وازداد اتصال المسلمين بها خاصة منذ الحرب العالمية الاولى ، وانتشرت المعرفة واتسع نطاق العلم الذى كان متسماً بطابع التفكير الغربى في مدارسنا ومعاهدنا العليا ، وبدأ الجمهور الاسلامى يفقد ثقته بهؤلاء الفقهاء الذين عجزوا عن حل مشكلاته من حيث لم يثق ابداً برواد الثقافة الغربية المتسمة بطابع العداء للاسلام بصفة خاصة وللاديان بصفة عامة .

ثالثاً : وكانت الفئة الثالثة من المفكرين الاسلاميين تتخذ موقفاً وسطاً بين الفئتين السابقتين وتنادى بأن الاسلام يحل كل مشكلات

المسلمين الاجتماعية ، فهي في هذا تلتقى مع أولئك الفقهاء لكنها تختلف معهم في فهم هذه المشكلات وتصورها وطبيعة حلها ، وتختلف معهم في طريقة فهم الاسلام وتمثل مقاصده العامة ، ويختلفون مع الفئة الاولى من رواد الثقافة الغربية بموقفهم من عقيدة الامة وتراثها وبموقفهم من الحضارة الغربية وايمانهم باستقامة مبادئها ومذاهبها .

وهذه الفئة الثالثة تفهم مبادئ الاسلام على انها هي المبادئ الثلاثة الآتية :

١ - تحقيق مصالح الناس في كل ما يحتاجون اليه ، ولا تضيق الشريعة الاسلامية بمصلحة للمجتمع ، وقرر العقلاء والدارسون الشرعيون والاجتماعيون بأنها مصلحة .

٢ - تحقيق العدالة بين الناس اذا تعارضت مصالحهم مهما كلفت العدالة من غرم لبعض الناس .

٣ - تحقيق التطور الاجتماعى الصالح في المجتمع الانسانى ، فلا يقف الاسلام في وجه تطور ما في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ، اذا كان هذا التطور نتيجة محتمة لتطور الفكر او العلم او ضرورات الحياة .

كما ان لهذه الفئة الثالثة من المفكرين الاسلاميين موقف من مشكلات المجتمع الاسلامى يقوم على ضرورة دراسة هذه المشكلات دراسة عميقة وعريضة ، والاختلاط بالمجتمع اختلاطاً شاملاً لكل فئاته حتى تتحدد المشكلة وتعرف اسبابها ويعرف الطريق الصحيح لحلها حلاً عملياً متفقاً مع رسالة الاسلام .

وتحيط بالعالم الاسلامى المعاصر قوى ومذاهب وتيارات فكرية واقتصادية تزيد من مشكلات هذا العالم ، من بينها الشيوعية والراسمالية والصهيونية ، فما موقف الاسلام منها ؟ .

ينظر المسلمون الى الشيوعية من ثلاث نواحي هي (٧٠) :

(٧٠) يمكن الاستزادة في هذا الموضوع من كتاب حاضر العالم الاسلامى للمؤلف الأمريكى لوثرروب ستودارد وتعليق الامير شكيب ارسلان ص ٢٥٣ - ٢٨١ - تحت عنوان : القلق الاجتماعى والبلشفية .

أولاً : ان الشيوعية كعقيدة ذات فلسفة مادية تنكر الروح وما وراء المادة ، وهى في ذلك تختلف عن الاسلام في اساسها وجوهرها ، ولا يمكن ان تلتقى معه في عقيدته وفلسفته ، وموقف الاسلام من فلسفة الشيوعية هو تنفيذها بالحجة والمنطق وتوضيح ما فيها من انحراف عن الحق وخطا في الواقع .

ثانياً : ان الشيوعية كنظام اقتصادى اشتراكى يسعى الى تحقيق العدالة بين طبقات الشعب ، ويمنع تحكم المال ووسائل الانتاج في العمل والعمال بأسلوب خاص . وموقف الاسلام انه وضع نظاما اشتراكيا واضح المعالم مستقلا عن الشيوعية وعن الاشتراكيات المتعددة وعن الرأسمالية ، وهو في ذلك لا يحارب الشيوعية في كل اتجاهاتها الاشتراكية ولا يقرها في كل اتجاهاتها ايضا ، كما انه لا يحارب النظم الاقتصادية الاخرى ولا يقرها في كل تفاصيلها واتجاهاتها .

ولقد سبقت الاديان كلها الشيوعية الى الرحمة بالبائسين وانصاف الناس والرغبة في تحقيق العدالة بين الجماهير ، ولكل دين وسائله الخاصة به في تحقيق هذه الاهداف الانسانية ، فلا ضرر على الاسلام ان تتفق معه الشيوعية في اهدافه الانسانية النبيلة ، وان كانت تسلك لذلك طرقا لا يقرها الإسلام .

ثالثاً : ان الشيوعية كدولة ذات قوة واهداف سياسية . وموقف الاسلام منها هو موقفه من كل قوة مسلحة تجاوزه . فان سالت عقيدة المسلمين وكرامتهم واحترمت ارادتهم وسلطانهم على ديارهم سالمها الاسلام والمسلمون ولو كانت مخالفة في العقيدة والنظام لان الاسلام لا يعرض الحرب على كل من خالفه ، وانما يضع هذا المبدأ الخالد العادل في قول الله سبحانه وتعالى : لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبوءهم وتقسطوا اليهم (٧١) . وان هى حاربت المسلمين في عقيدتهم وكرامتهم وديارهم اعلن المسلمون عليها الحرب واستعد المسلمون بكل وسائل القوة لرد العدوان ، وشعارهم في ذلك هو المبدأ الذى لا يزال شرعة الامم حتى اليوم في قول الله سبحانه وتعالى : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (٧٢) .

(٧١) سورة المتحنة الآية رقم ٨ .

(٧٢) سورة البقرة الآية رقم ١٩٨ .

واذا كانت هذه نظرة الاسلام والمسلمين الى الشيوعية فلماذا تنتشر الشيوعية في بلاد المسلمين ؟ وفي رأينا هناك عدة اسباب لانتشار الشيوعية في اقطار العالم الاسلامى سواء في المشرق ام في المغرب ، اهمها ما يلى : - (٧٣).

اولا : فساد الانظمة الاجتماعية ، فان انحطاط مستوى المعيشة والعلم والصحة والتفاوت الكبير بين الطبقات وفساد انظمة الحكم وانحراف الحكام عن سنن العدالة ، ذلك كله من اكبر اسباب التدمير الذى يؤدى بالجماهير الى اعتناق اية فكرة تظن فيها الخلاص من حالتها السيئة . ان الجماهير انما تعنى بمصالحها المالية قبل كل شيء، وهى تفتش عن تحقيق تلك المصالح في دائرة اديانها ، فاذا رأت فيها العجز والاعراض عن تحقيق ذلك تولت عنها وهى تفتش عن مذهب يعدها بالانقاذ وستتبعه حتما ولو كان آتيا من الشيطان .

ثانيا : محاربة الديمقراطية الغربية لشعوب العالم الاسلامى والمتخلف في افريقيا وآسيا في امانها التحررية والاستقلالية ومحاربة ابقائها تحت نير الجهل والظلام والعبودية ، واشاعة حكم الارهاب والبطش في كثير من الاقطار المتحفزة للتحرر ، كل ذلك له اثره في اتجاه الجماهير الى نظام يعدها بالتحرر من ساطان الديمقراطيات وبطشها وارهابها .

ثالثا : التأييد الذى لقيته الصهيونية من الديمقراطية الغربية حتى اصبح لها كيان مفروض في قلب الوطن العربى رغم ارادة سكانه وشعوبه مما شرد سكان فلسطين العرب واشاع المرارة والخيبة في نفوس العرب والمسلمين ، وجعل اوساط اللاجئين الفلسطينيين امكنة صالحة للشيوعية تزداد يوما بعد يوم . واذا كان اضطراب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في اوربا قد جعل نصفها يميل الى الشيوعية او يقع تحت قبضتها ، فكيف لا تؤدى الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة في اوساط الشعوب الاسلامية ، الى جانب موقف الدول الغربية الديمقراطية المعادى لاماني الشعوب الاسلامية ، كيف لا يؤدى ذلك كله الى ميل بين الجماهير الاسلامية - والعربية جزء منها - نحو الشيوعية (٧٤) .

(٧٣) يمكن الاستزادة في هذا الموضوع بالرجوع الى كتاب الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا للدكتور يوسف القرضاوى ص ٣٢٠ - ٣٣٢ تحت عنوان كيف وجدت الاشتراكية لها سوقا .

(٧٤) لمزيد من التفصيل عن الاسلام والشيوعية يمكن الرجوع الى كتاب الماركسية والاسلام للدكتور مصطفى محمود .

واذا كان هذا هو موقف الاسلام والمسلمين من الشيوعية ، فما موقف الاسلام والمسلمين من الرأسمالية ؟

ينظر الاسلام والمسلمون الى الرأسمالية من ثلاث نواحي هي : - (٧٥) .

١ - ان الرأسمالية كعقيدة ومبدأ يرتبط بمفاهيم الديمقراطية الغربية والليبرالية في مجالات السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية ، وموقف الاسلام من ذلك هو ان للاسلام ديموقراطيته غير المزيغة ودعوته للحرية الموجهة البعيدة عن الفوضى ، ومن ثم يمكن القول ان ديمقراطية الاسلام اكثر اصاله وتحديدا لانها تنسحب على المسلمين وغير المسلمين بينما الديمقراطية والحرية الغربية لا يقرها اصحابها لغيرهم .

ب - ان الرأسمالية كنظام اقتصادي يقوم على اساس نظرية العرض والطلب والمنافسة الحرة في الانتاج والتجارة ، وتطبيقا لهذه النظرية لا تتدخل حكومات المجتمعات الرأسمالية في الاقتصاد القومي للبلاد ، انما تترك امره للأفراد ، فالملكية الخاصة لوسائل الانتاج تحصر الاستفادة في عدد قليل من الافراد او الذين تتيح لهم سيطرتهم على وسائل الانتاج استغلال مجموع الشعب والتحكم في الاسواق وفي الاسعار . وموقف الاسلام من ذلك موقف الناقد لكل استغلال للانسان ولكل احتكار في احتياجات الناس ، حيث ان مبادئ الاسلام لا تقر الرأسمالية في استغلالها وفي تميزها الطبقي ، انما تؤمن بالمساواة وفي التقارب الطبقي وفي التكافل الاجتماعي وان تكون الثروة في خدمة المجموع .

ج - ان الرأسمالية في نظام سياسي كدول ذات قوة واهداف سياسية مارست قوتها وحقت اهدافها الاستعمارية في كل اقطار العالم الاسلامي، وزرعت الصهيونية في قلب العالم الاسلامي وأمدتها بأسباب القوة والبقاء وحاربت الاسلام بصور شتى ، ولذلك يقف منها الاسلام والمسلمون موقف المكافح والمناضل ضد الاطماع الاستعمارية واتجاهات الالحاد التي حاولت الدول الاستعمارية بثها ، وهدف الاسلام والمسلمين هو المحافظة على جوهر

(٧٥) يمكن الاستزادة من موضوع الرأسمالية والاسلام بالرجوع الى كتاب الحلول المستوردة وكيف جنت علينا للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٠٣ - ١٣١ تحت عنوان لماذا فشلت الليبرالية الديمقراطية عندنا ؟ .

الدين الاسلامى واصوله ، وطررد الاستعمار من ارض المسلمين واقامة غلاقات مع الدول الراسمالية على اساس المصلحة الوطنية ومعاملة الند للند ، والوعى بأساليب الحضارة الغربية المادية بحيث يملكها المسلمون ويستفيدون منها دون ان تملكهم هى وتقيد حركتهم (٧٦) .

ولنا سؤال اخير حول احدى المشكلات التى واجهت العالم الاسلامى، وهو موقف الاسلام من الصهيونية ؟ . لا شك ان الدين الاسلامى والمسلمين يفرقون بين اليهودية كدين سماوى والصهيونية كحركة عنصرية سياسية متحالفة مع الاستعمار ضد جزء من الامة العربية التى هى قلب الامة الاسلامية ، ذلك ان الصهيونية التقت مع النازية في مبادئها حيث تدعو الصهيونية الى مبدأ العنصر الممتاز ومبدأ الديانة الخاصة والوطن الخاص ، بل وتدعو الى تحقيق حلم استعمارى بأن تمتد الصهيونية سيطرتها على معظم منطقة الشرق الاوسط من نهر النيل الى نهر الفرات ، كما تدعو الى استخدام القوة لتحقيق هذه السيطرة ، وبالتالي استغلوا نفوذهم السياسى ليس فقط في اوربا بل في امريكا كذلك الى جانب نفوذهم الاقتصادى وسيطرتهم على اجهزة الدعاية من صحافة واذاعة وتليفزيون ونشرات .. (٧٧) .

ومما هو جدير بالذكر ان الحركة الصهيونية كانت اكثر تحركا وتنظيما من العرب ولها رجال ذوى نفوذ في الاقطار الكبرى الاربعة انجلترا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة الامريكية وهى الاقطار المنتصرة في الحرب العالمية الاولى (٧٨) ، ولكن اساليبها لم تغب عن اليهود في العالم، اذ وجدت جماعات يهودية عالمية عارضت بشدة خطط الحركة الصهيونية ، وقد ارسل حوالى ٣٠٠ من قادة اليهود الامريكيين الى الرئيس ويلسون يعبرون عن استنكارهم لمطالب الحركة الصهيونية في فلسطين ، كما كانت هناك قيادات يهودية في اوربا تعتقد ان الصهيونية انما تمثل خطرا على اليهود في العالم ، وتسبب مزيدا من العداء للسامية (٧٩) .

-
- (٧٦) للاستزادة يمكن الرجوع الى كتاب الاسلام والراسمالية لمؤلفه مكسيم رودنسون وترجمة نزيه الحكيم .
- (٧٧) د. محمد فاضل الجمالى : الخطر الصهيونى ص ٢٥ - ٣٢ .
- (٧٨) د . رافت الشيوخ : امريكا والعلاقات الدولية ص ١٦٩ - ١٧٠ .
- (٧٩) . Polk, W. : The U.S. and the Arab World, P. 300.

وعقب الحرب العالمية الثانية نشطت الحركة الصهيونية في تذكير الدول الكبرى بتنفيذ وعد بلفور مستخدمة ما لاقاه الصهيونيون من اضطهاد على يد هتلر في ألمانيا وكان الرأي العام الأمريكي يجهل تماما الوضع القائم في فلسطين وما يمكن ان يؤدي اليه تحقيق مطالب الصهيونية من صراع . وبدت امام الرأي العام الأمريكي دعاوى الصهيونية وكأنها حجج قانونية وعادلة ، بينما كانت اقلية من الشعب الأمريكي الذين عاشوا في منطقة الشرق الاوسط يرفعون اصوات الاحتجاج ضد الدعاوى الصهيونية (٨٠) .

ومع ذلك قامت اسرائيل كبداية لحلم الحركة الصهيونية : واتخذت منذ عام ١٩٤٨م سياسة عدوانية ليس فقط بارتكاب مذابح قامت بها العصابات الصهيونية ضد العرب في فلسطين ، بل وايضا في الاعتداء على الدول العربية الاسلامية المحيطة بفلسطين كالاردن ومصر وسوريا ولبنان منذ عام ١٩٤٨م مروراً بعام ١٩٥٦م و عام ١٩٦٧م حتى ١٩٧٣م ، مستندة الى التصريح الذي اصدرته كل من الولايات المتحدة الامريكية وانجلترا وفرنسا في ٢٥ مايو عام ١٩٥٠ بضمن حدود دول الشرق الاوسط ، والذي معناه ضمان حدود اسرائيل وتهديد للعرب اذا حاولوا مهاجمتها (٨١) .

اذا كان هذا هو الخطر الصهيوني على الاسلام والمسلمين ، فكيف لهم مواجهة هذا الخطر ؟ في رأيي ان ذلك يأتي بوحدة المسلمين الذين تهفو نفوسهم الى اولى القبلتين في القدس الواقعة تحت سيطرة اسرائيل ، وحدة على الاقل في الهدف وان اختلفت الوسائل ووضع الخطط والامكانيات الكفيلة بتحقيق مثل تلك الوحدة موضع التنفيذ، ودراسة اساليب الصهيونية لكي يتمكن المسلمون من معرفة مخططاتها والاستعداد للرد عليها او منعها من التحقيق ، وذلك من خلال معرفة المسلمين لامكانياتهم ومدى ما يمكن ان يقدموه لتحقيق هدفهم .

كذلك يمكن للمسلمين عن طريق التأخرى والتكاتف والعمل المنتج تربية شباب مزود بفلسفة روحية خلقية وعملية شاملة تؤهلهم ليس فقط لمقاومة الخطر الصهيوني بل والخطر الاستعماري الذي يتخذ حالياً اشكالا ثقافية واقتصادية ، وان يتزود هذا الشباب بالعلم الحديث والاساليب الحديثة

(٨٠) The American Assembly : The United States and the Middel East, P. 7.

(٨١) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٢ .

في الاقتصاد والاجتماع ، والتخلي عن الاساليب القديمة البالية ، هذا الى جانب الاخذ بمبدأ الدفاع عن النفس انطلاقا من ان خير وسيلة للدفاع عن النفس هى الهجوم ، ولتحقيق ذلك يمكن الاخذ بما يلي :

١ - ان يدرك العرب والمسلمون ويفهموا بصورة جلية حقيقة الخطر الصهيونى ، وان هذا الخطر لن يقتصر على فلسطين وحدها بل انه يشمل البلاد العربية الاسلامية كلها .

٢ - ان يتعاون العرب في داخل فلسطين وخارجها على شراء اراضى فلسطين وجعلها وقفا بحيث لا يمكن بيعها الى الصهيونيين في المستقبل .

٣ - ان يتمسك العرب تمسكا شديدا بكل التصريحات التى تضمن لهم حرياتهم وحقوقهم كاملة مما صرح به الرجال المسئولون في الديمقراطيات الكبرى وهيئة الامم المتحدة .

٤ - ان تشترك البلاد العربية والاسلامية بالتعاون مع عرب فلسطين في انشاء مراكز كبرى للدعاية والتنوير في اوروبا وامريكا ، وبيان ان ما شكوى العرب اليوم الا من الصهيونية السياسية الاعتدائية التى جاءت لتحتل قلب البلاد العربية ولتخلق الامة العربية وهى في بدء نهضتها الجديدة (٨٢) .

٥ - استخدام المؤتمر الاسلامى ومؤتمرات عدم الانحياز والوحدة الافريقية ومنظمة الشعوب الاسيوية الافريقية في تأيد القضية العربية الاسلامية وقلبها فلسطين ونبضها القدس الشريف .

اذا كانت تلك المشكلات التى تواجه المسلمين وتفت في عضد الاسلام وتمنع الوحدة الاسلامية من ان تقوم لها قائمة ، فما هو الحل لمواجهة تلك المشكلات ؟ . لقد فشل الحلان الدخيلان على بلادنا المستوردان من عند غيرنا وهما الحل الليبرالى الديمقراطى ، والحل الاشتراكى في كل مجالات الحياة ، لقد فشلوا في المجال الاقتصادى وفي مجال الحرية والطمأنينة للشعوب المسلمة ، وفي المجال العسكرى وفي المجال الاخلاقى وفي المجال العربى

(٨٢) د. محمد فاضل الجمالى : المرجع السابق ص ٩٦ - ١٠٣ .

والاسلامى . . اذن لم يعد امامنا سوى ان نقول مع القائلين ان الحل الاسلامى فريضة وضرورة (٨٣) اذا اريد للامة الاسلامية ان تتخلص من مشكلاتها وتستعيد مكانتها الاولى .

وكيف تهتدى الشعوب الاسلامية مع حكامها الى تطبيق الشريعة الاسلامية في كل نواحي حياتها ؟ لكى يتحقق ذلك لابد من شروط لاقامة المجتمع الاسلامى الكامل . بمعنى ان تكون عقيدته اسلامية ومفاهيمه وافكاره اسلامية ، ومشاعره ونزعاته اسلامية ، واخلاقه وتربيته اسلامية . وان تكون قوانينه وتشريعاته اسلامية (٨٤) . . كيف ؟

١ - ضرورة قيام الدولة المسلمة حكومة وشعبا التى تقوم بحماية عقيدة الاسلام من اى عبث ، واقامة الشعائر الاسلامية والاعانة عليها ، ولتوجيه ابناء المجتمع توجيهها اسلاميا . ولوضع التشريعات التى جاء بها الاسلام في قوانين قابلة للتطبيق ، ولتنظيم فريضة الجهاد بتدريب المسلمين وشراء الاسلحة وتنظيم الصفوف .

٢ - اتخاذ الاسلام مصدرا وحيدا للتشريع ، فمثلا اذا قال الاسلام ان المسلمين امة واحدة وان المؤمنين اخوة . وان الرابطة الاسلامية فوق الرابطة القومية والوطنية . فالحل الاسلامى هو الذى يقيم سياسته العملية على الولاء لامة الاسلام والعداء لاعداء الاسلام . والعمل الجاد المخلص على اعادة الوحدة الاسلامية .

٣ - ان يكون تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا شاملا لا يقبل التجزئة ، بمعنى ان يتصدى الحل الاسلامى لكل مشكلات الحياة . وعدم اخذ بعض احكام الله دون بعض .

٤ - لا يمكن تطبيق الشريعة الاسلامية الا اذا اخذت باسم الاسلام وتحت عنوان الاسلام لا باسم الاشتراكية او الراسمالية .

٥ - ان يكون الاسلام غاية لا وسيلة . وان يكون المنتهى لكل الانظمة والمناهج والوسائل والامكانيات لتطبيقه . ولا يتخذ وسيلة لتثبيت حكم معين او للدعاية لبلد او لاسرة او لحزب او عهد او نظام او مذهب (٨٥) .

(٨٣) د. يوسف القرضاوى : الحل الاسلامى فريضة وضرورة ص

١٥ - ٦ .

(٨٤) نفس المصدر ص ٢٧ .

(٨٥) نفس المرجع السابق ص ٦٩ - ٩٦ بتصرف .

منظمة المؤتمر الاسلامى

وتحقيقا لهذه الاهداف كان لابد من وجود هيئة تنسق بين الشعوب والحكومات الاسلامية بعضها مع بعض . ومن ثم ظهرت على الساحة الاسلامية دعوة لتجسيد الوحدة الاسلامية في صورة عملية ، وجاء هذا التجسيد فيما اصبح حقيقة واقعة واعنى « منظمة المؤتمر الاسلامى » الذى صارت له امانة عامة وعدة هيئات او منظمات تتبعها .

شهد النصف الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين للميلاد) قيام اكبر منظمة للعالم الاسلامى ، وانعقد اول مؤتمر قمة اسلامى لها في الرباط عاصمة المملكة المغربية في رجب سنة ١٣٩٨ هـ (سبتمبر ١٩٦٩ م) وفي غضون العشر سنوات التالية عقدت العديد من مؤتمرات القمة ومؤتمرات وزراء الخارجية الاسلامية للنظر في القضايا الاسلامية الملحة التى تواجه الشعوب الاسلامية واستطاعت على هذا المدى القصير ان تكون واحدا من ابرز المنظمات العالمية بحكم مئآت الملايين من القوى البشرية التى تمثلها وانتماؤها لآخر واعظم الديانات السماوية بالاضافة الى اهمية الموضوعات التى تتناولها والتى تشكل جزءا هاما من قضايا الانسانية المعاصرة .

ولقد كان ظهور المنظمة على مسرح التاريخ المعاصر نتيجة لعوامل متعددة نبرز اهمها فيما يلى .

« أولا » مشكلات الاقليات الاسلامية .

نتيجة لحركة المد الاطرادى العكسى بين زيادة انتشار الدين الاسلامى ، وانحسار النفوذ السياسى لبعض الدول الاسلامية ، بسبب السياسة الاستعمارية ، ظهرت اقليات اسلامية ، في اطار دول غير اسلامية . وارتبط ذلك بتعرض هذه الاقليات ، لاضطهادات دينية وسياسية واقتصادية ، اتخذ بعضها دورا حادا ، اقرب الى محاولات الابادة منه الى شيء اخر كما هو الحال بالنسبة لمسلمى الفلبين ، ووسط آسيا وجنوب افريقية ، واتخذ بعضها محاولات الادمج والامتصاص كما هو الحال بين مسلمى قبرص وارتريا ، بالاضافة الى تعرض بعض المسلمين في مناطق كثيرة من انحاء العالم لاضطهادات دينية وسياسية واقتصادية . وقد شجع هذه الحركة المضادة للاسلام ما لقيته من نجاح في مراحل سابقة في ميادين اخرى نخص بالذكر منها انهاء الوجود الاسلامى في كل من اسبانيا وصقلية وكريت وغيرها .

وعلى الرغم من وجود المنظمات الدولية المعروفة الا انها لم تكن صالحة لمجابهة هذه القضايا التي طالما نظر اليها على انها قضايا داخلية لا تجيز موافق هذه المنظمات التدخل فيها وحتى الجامعة العربية كان ميثاقها يقف عاجزا عن التصدى بايجابية لهذه المشكلات تمثيا مع نصوص ميثاقها بالاضافة الى تشابك الظروف الدولية السياسية والاقتصادية في عالمنا المعاصر وهو ما سوف نفرد له بندا خاصا في هذه العوامل .

ومن اجل ذلك كان لابد من وجود منظمة اسلامية تختص بالنظر في هذه المشكلات والقضايا بعيدا عن الحساسيات المختلفة .

« ثانيا » مشكلات التخلف الحضارى :

ليس من شك في ان المد الاستعماري بوجه خاص والسياسة الامبريالية بوجه عام قد ساعد على تثبيت التخلف الحضارى في كثير من البلاد الاسلامية التي تعرضت للاحتلال الاجنبى بسبب السياسة الاقتصادية التي كانت تجعل من هذه البلاد مناطق استهلاك لمصنوعات ومنتجات الدول الصناعية الكبرى ولذلك فقد كانت عملية الاحتلال الاجنبى تعمل على اعاقه اى نمو حضارى يمكن ان يحرم الدول الكبرى من استنزاف ثروات البلاد المغلوبة على امرها وحتى بعد ان حصلت كثير من البلاد الاسلامية على استقلالها فان فروق مسافات التخلف بين اولئك الذين سبقوا على الطريق وأولئك الذين يلهثون من اجل التقدم ظلت طويلة وشاقة ليس فقط بسبب المعوقات التي تضعها الدول المستغلة في طريق النمو والتقدم وانما ايضا بسبب الحاجة الى موارد التمويل والاساليب التنظيمية والتقنية الحديثة بالاضافة الى الخبرات والامكانيات المطلوبة في هذا السبيل وكان اخطر ما فسرت به هذه الظاهرة ادعاء التناقض بين معطيات الاسلام والنهضة العلمية المعاصرة ومن اجل ذلك كان لابد من تنظيم اسلامى يجابه كل هذه المشكلات ويساعد على تجاوزها خاصة بعد ان توافرت الامكانيات المادية لدى الدول البترولية الاسلامية والامكانيات والخبرات التقنية لدى بعض الدول الاسلامية التي سبقت على الطريق .

« ثالثا » تجاوز الحساسيات الشكلية في جامعة الدول العربية :

الجامعة العربية ضرورة قومية يجب ان يسعى الجميع لتدعيمها وتقويتها حيث انها في النهاية المعتمصم الاخير الذى تلجأ اليه الدول

العربية كلما ادلهم بها الامر او استعصى عليها الاتفاق على حل ومهما قيل عن امكانياتها المحدودة وسلبياتها التي تنعكس عليها من واقع العالم العربى فهي الامس المرئى الذى يحاول فيه زعماء الامة العربية ان يتناسوا خلافاتهم ويضمدوا جراحاتهم .

ولكن الجامعة العربية بمواثيقها التقليدية المرتبطة بمواثيق المنظمات الدائرة في فلك المنظمات الدولية تحول بينها وبين مناقشة مشاكل الاقليات الاسلامية في الدول المختلفة لان ذلك يتعارض مع حقوق الدول في سيادتها الداخلية بالاضافة الى تشابك المصالح العربية وغير العربية في كثير من الموضوعات والمشكلات والقضايا السياسية الهامة التى تحتاج فيها الجامعة العربية دعما دوليا على مستوى المنظمات السياسية الكبرى .

ومن أجل ذلك فكثيرا ما كانت تتجاوز جامعة الدول العربية النظر في كثير من القضايا الاسلامية الهامة وفي مقدمتها مشاكل المسلمين في القلبين وقبرص وارتريا وجيبوتى وغيرها مما كان يؤدى في كثير من الاحيان الى تجميد هذه المشكلات فضلا عما كان يصيب هذه الاقليات الاسلامية من اسي عميق يتولد عن الشعور باغفال الجامعة العربية لاوزاعها المريعة .

ومن هنا كان لابد من ايجاد منظمة اسلامية تتخطى هذه الحواجز والحساسيات وتقدم المساعدات والامكانات المادية والعسكرية والحضارية للاقليات الاسلامية المقلوبة على امرها .

« رابعا » حريق المسجد الاقصى في ٢١ اغسطس سنة ١٩٦٩ م :

كان السبب المباشر الذى حول الحلم الى حقيقة ما اقدمت عليه اسرائيل في ٢١ اغسطس سنة ١٩٦٩ م جريا على سياستها العدوانية من عملية تخريب كبرى لبعض الاماكن الاسلامية المقدسة في فلسطين المحتلة وانتهاك حرمايتها وبلغت ذروة ذلك الانتهاك بالحريق الذى اشعلته في المسجد الاقصى ونتجت عنه اضرار فادحة سببت الدعر عند اكثر من ثمانمائة مليون من المسلمين مما دعا الى ضرورة تصدى الدول والشعوب الاسلامية لهذا الحدث الخطير واذابة كل الحساسيات التى كانت تشار حول انشاء المنظمة الاسلامية ولذلك لا نعجب اذا راينا ان اول مؤتمر

قمة لمنظمة المؤتمر الاسلامى انعقد بعد اقل من شهر لهذا الحادث الخطير بمدينة الرباط في رجب ١٣٨٩ هـ (سبتمبر سنة ١٩٦٩ م) وحضره ملوك ورؤساء سبع وعشرين دولة عربية واسلامية وممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينية كمراقبين ولم تحضر كل من سوريا والعراق وقد ندد المؤتمر بهذا الحدث الخطير وطالب المؤتمر كلا من فرنسا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الاخذ بعين الاعتبار وضع الحرم القدسي بالنسبة للمسلمين في مختلف ارجاء الارض وعزم الحكومات الاسلامية على تحرير القدس ورفضهم لموقف اسرائيل من ضم القدس الشرقية الى عاصمة الدولة الصهيونية بالاضافة الى ضرورة الانسحاب من الاراضي العربية التى احتلت بعد عام ١٩٦٧ ومساندتهم الكاملة للشعب الفلسطينى في كفاحه من أجل استرداد اراضيه مع ترك التفاصيل لمؤتمر يعقد على مستوى وزراء خارجية الدول العربية الاسلامية في جدة في محرم ١٣٩٠ هـ (فبراير / مارس ١٩٧٠ م) واهم ما يلاحظ على هذا المؤتمر الاول ما يلى .

« أولا » ان هذا الاجتماع كان أقرب الى مؤتمر مجابهة لمسألة حريق المسجد الاقصى أكثر منه مؤتمرا للمنظمة الاسلامية ويتضح لنا ذلك من قراراته التى اقتضت على شجب موقف اسرائيل من هذا الحادث العدوانى الخطير اضافة الى القرارات التقليدية المعتادة لجامعة الدول العربية وفي مقدمتها المطالبة بجلاء القوات الاسرائيلية عن الاراضى التى احتلت بعد عام ١٩٦٧ .

« ثانيا » تردد بعض الدول التى تنهج نهجا اشتراكيا في سياستها في حضور هذا المؤتمر وفي مقدمتها العراق وسوريا اللتان امتنعتا عن حضور المؤتمر بالاضافة الى مصر التى حضرت كعضو مراقب ولو انها كانت قد خرجت جريئة من عدوان سنة ١٩٦٧ فلربما كانت حذت حذو الدولتين الاخرين وقد كان ذلك راجعا الى التصور الذى وقر في اذهان هذه الدول من وجود تناقض بين فكرة المؤتمر الاسلامى والجامعة العربية .

« ثالثا » قلة عدد الدول الاسلامية والعربية التى شاركت في هذا المؤتمر اذا قورنت بعضوية منظمة المؤتمر الاسلامى الان التى تضم واحدا واربعين دولة اسلامية وعربية هى المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية والجمهورية الفينية والجمهورية الاندونيسية وايران

ولمملكة الاردنية الهاشمية وجمهورية لبنان والمملكة المغربية والجمهورية الليبية والجمهورية التونسية وجمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية وجمهورية بنجلاديش الشعبية وجمهورية افغانستان والجمهورية العراقية وجمهورية النيجر والجمهورية التركية وجمهورية اوغندا واتحاد ماليزيا وجمهورية زامبيا وغيينيا بيساو وجمهورية الكاميرون ودولة الامارات المتحدة وجمهورية تشاد وجمهورية مالى ودولة قطر وسلطنة عمان ودولة الكويت والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وجمهورية موريتانيا الاسلامية ودولة البحرين وجمهورية جابون وجمهورية سيراليون وجمهورية باكستان الاسلامية وجمهورية السنغال وجزر القمر ومالديف وجمهورية السودان والجمهورية العربية السورية وفلسطين .

« رابعا » عدم تمثيل الجامعة العربية في هذا الاجتماع لما سبق أن ذكرت من انه كان هناك تصور خاطيء بوجود تناقض بين المنظمين الاسلامية والعربية . وكان اشتراك أمين الجامعة العربية في جلسات منظمة المؤتمر الاسلامي اعتبارا من المؤتمر الثالث الذي عقد في كراتشي شوال سنة ١٣٩٠ هـ (ديسمبر ١٩٧٠ م) ولم تحضره العراق وسوريا أيضا وبدأ اشتراك سوريا في المؤتمر الرابع الذي عقد في جدة في محرم سنة ١٣٩٢ هـ مارس سنة ١٩٧٢ م وهو من اخطر مؤتمرات المؤتمر الاسلامي ثم بدأ حضور العراق بعد ذلك .

ولقد بدأ المؤتمر في جلسته الثانية التي عقدت في جدة في محرم سنة ١٣٩٠ هـ (فبراير - مارس ١٩٧٠ م) بحضور وزراء خارجية الدول الاسلامية والعربية يضع الاسس التنظيمية لتشكيله فقرر انشاء امانة دائمة للمؤتمر الاسلامي يكون مقرها جدة الى أن تتحرر القدس فينتقل اليها على أن تكون هذه الامانة حلقة اتصال بين الدول الاسلامية مهمتها متابعة تنفيذ القرارات والاعداد للدورات القادمة واتخذ المؤتمر قرارا باعتسبار يوم ٢١ أغسطس من كل عام (يوم حريق المسجد الاقصي) يوم التضامن مع الشعب العربي الفلسطيني .

ويعتبر المؤتمر الثالث لوزراء خارجية الدول الاسلامية الذي عقد في جدة (في محرم سنة ١٣٩٢ هـ فبراير / مارس سنة ١٩٧٢ م) من اخطر اجتماعات المؤتمر حيث صودق فيه على ميثاق المؤتمر الاسلامي بشأن تعزيز التضامن ودعم التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية والعلمية والمجالات الاخرى بين الدول الاسلامية كما تقرر انشاء المؤسسات التالية .

١ - انشاء وكالة انباء اسلامية دولية في جدة تكون مركزا لاهم الانباء والاحداث الاسلامية ويتسم تداولها ونشرها على الدول الاعضاء .

٢ - انشاء منظمات ومراكز ثقافية اسلامية مهمتها نشر وحماية العقيدة والثقافة الاسلامية على ان تكون من اختصاصات دائرة الشؤون الثقافية بالامانة العامة ويشرف عليها مساعد الامين العام وتختص بالجوانب التالية :

(ا) رعاية الجماعات الاسلامية ماديا وثقافيا في جميع بلدان العالم الاسلامي .

(ب) جمع المعلومات ذات الطابع الثقافي ودراستها وتداولها .

(ج) نشر الكتب المتعلقة بالدين الاسلامي والثقافة الاسلامية بالاضافة الى قضايا العالم الاسلامي الكبرى وفي مقدمتها القضية الفلسطينية وقضايا الاقليات الاسلامية في العالم .

(د) تنظيم دورات تدريبية للمسؤولين عن المراكز الثقافية الاسلامية .

(هـ) تنشيط الالعاب الرياضية واقامة المباريات بين الدول الاسلامية .

(و) انشاء مركز للبحوث الاسلامية .

(ز) جمع الاحصاءات واعداد الدراسات عن احوال الجماعات الاسلامية في البلاد غير الاسلامية .

(ح) انشاء مجلة اسلامية دورية تنطق باسم المؤتمر الاسلامي .

(ط) انشاء جامعة اسلامية تفتح ابوابها لكل ابناء الشعوب الاسلامية .

٣ - الموافقة على اقتراح مصر بانشاء البنك الاسلامي الدولي مهمته الدراسة العلمية واعطاء المشورة في الموضوعات الاقتصادية على ان تكون له ادارة مالية واقتصادية لخدمة العالم الاسلامي .

وقد تعرضت المؤتمرات الاسلامية اثنا عشر التي عقدت حتى الان لكافة القضايا الاسلامية الهامة وفي مقدمتها عدوان البرتغال على غينيا وقضية المسلمين في الفلبين وتضامن الدول الاسلامية مع الشعوب الافريقية المكافحة ضد الاستعمار والتمييز العنصري وقضايا المسلمين في قبرص وارتريا وجيبوتي وغيرها من القضايا الاسلامية الملحة ووقفت الى جانبها تساندها ماديا وسياسيا واعلاميا وفكريا .

وقد اجتمع وزراء الخارجية للدول الاسلامية في دورته رقم ١٢ بمدينة « اسلام آباد » الباكستانية خلال شهر رجب ١٤٠٠ هـ الموافق شهر مايو ١٩٨٠ وذلك لمناقشة اهم قضيتين على الساحة الاسلامية وهما :

١ - الغزو السوفيتى لافغانستان .

٢ - قضية فلسطين .

وقد اتخذ المؤتمر في ٨ رجب ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٢ مايو ١٩٨٠ م عدة قرارات اهمها :

١ - أعرب المؤتمر عن قلقه العميق لما يعانيه الشعب الافغانى وللتدفق المستمر للاجئين الافغانيين الى باكستان وايران .

٢ - قرر المؤتمر تشكيل لجنة لزيارة موسكو للتفاوض بشأن مشكلة افغانستان .

٣ - توجيه نداء الى جميع دول العالم لتقديم المساعدة لتخفيف آلام اللاجئين الافغانيين .

٤ - كرر المؤتمر مطالبه بالانسحاب الفورى والكامل وغير المشروط لجميع القوات السوفيتية المرابطة في الاراضي الافغانية ، وأهاب بجميع الدول لاحترام سيادة افغانستان ووحدتها اراضيها واستقلالها السياسي وانتماؤها للاسلام .

٥ - أكد المؤتمر التزام جميع الدول الاسلامية بتنفيذ جميع القرارات الاسلامية السابقة والمتعلقة بمدينة القدس .

٦ - اعتبر المؤتمر قرار العدو الاسرائيلى الاخير بضم مدينة القدس الشريفة وجعلها عاصمة لكيانه الصهيونى العنصرى قرارا باطلا ولاغيا وغير مشروع وتحديا لمشاعر المسلمين جميعا ، ودعا المؤتمر جميع المسلمين لمقاومته (٨٦) .

(٨٦) جريدة الراية القطرية - الدوحة العدد ١٤٠ السنة الثانية السبت ١٠ رجب ١٤٠٠ هـ / ٢٤ مايو ١٩٨٠ م .